18

روايات مصرية للجيب

فانتازيا

توم ومن معه !

Looloo

مقدمة

اسمها (عبير عبد الرحمن)

إنها لا تملك شيئًا من رقة اسمها ، ورشاقة اسمها ..

إن (عبير) ليست جميلة بأىّ مقياس ، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات ، وليست عالمة أو أديبة ممثلة ، ولا تملك مؤهلاً دراسيًّا محترمًا ..

إن (عبير) هى إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة .. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها .. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة ..

لقد قابلت (عبير) (شريف) .. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم ـ والأهم من هذا ـ العبقرى .. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًّا ولا تملك أىّ ذكاء .. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذى ابتكره ، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء ، وإعادة برمجتها فى صورة مغامرات متكاملة ..

ولأن (عبير) تقرأ كثيرًا جدًّا .. ولأن عقلها مزدحم

بأبطال القصص ومواقف القصص ؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة ..

(عبير) سترى القصص التى عشقتها .. ولكن مع تحوير بسيط : إنها ستكون جزءًا متفاعلاً فى كل قصة ! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان) .. وتغوص فى أعماق المحيط مع كابتن (نيمو) ..

وتزوج (شريف) (عبير) .. ربما لأنه أحبها حقًّا .. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد .. ونعرف أن (عبير) حامل ..

وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا) .. ترى الكثير وتعرف الكثير .. وفى كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة ..

إن (عبير) تنتمى إلى (فانتازيا) .. أرض الخيال التى صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة .. وأعاد تقديمها لها من جديد ..

(فانتازيا) هى المهرب من براثن الواقع .. وكل الوجوه التى لا تتغيّر ..

(فانتازيا) هى الحلم الذى صاغته عبقرية الأدباء

على مرّ السنين .. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه .. لكن هذا فى مقدورنا الآن ..

لسوف نرحل جميعًا مع (عبير) إلى (فانتازيا) .. نضع حاجياتنا وهمومنا فى القطار الذاهب إلى هناك ..

هو ذا جرس المحطة يدق .. وهدير المحركات يدوى .. إذن فلنسرع !

★ ★ ★

١ ـ حادث صغير ..

وضعت (عبير) طفلتها (شذى) ذات مساء حارّ من شهر (يوليو) ..

لماذا اختارت لها اسم (شذى) ؟ ربما لأنها استعملت هذا الاسم من قبل فى مغامرتها (بين عالمين) ؟ وظلّ الاسم عالقًا فى ذهنها منذ ذلك الحين ..

لقد كان (شريف) زوجها يتمنى لو رزق بطفل أن يسميه (عادل) ، لكن رنين اسم (عادل شريف) بدا لها ملفقًا مفتعلاً إلى حدّ ما ، كأحد أسماء القصص ..

وسرّها أن رزقت بأنثى ؛ لأن هذا أعفاها من المجادلة ، وبدا لها اسم (شذى شريف) اسمًا موسيقيًا لا بأس به ، يناسب شاعرة لامعة ، أو صحفية متحمسة ناشطة ..

★ ★ ★

حقًا لم تكن تجربة الولادة قاسية كما عرفتها فى عالم الخيال .. والغريب أنها انتهت قبل أن تحسبها قد

بدأتْ .. تذكر الحرّ والعرق ، وتذكر الكشافات الحارقة المسلطة عليها فى غرفة لها رائحة المطهرات .. رائحة المرض كما تخيلَتْ دائمًا .. وتذكر وجه الممرضة الأسمر ، وهى تردّد لها مرارًا عبارات التشجيع ، وصوت الكائن الصغير الذى يعوى كالشياطين ، محتجًا على مغادرته للظلام الناعس الدافىء ، الذى كان يسبح فيه مائتين وثمانين يومًا .. تذكر الابتسامات وعبارات التهانى ، وتذكر الألم الممض الذى جاء سريعًا وخبا سريعًا ..

وأخيرًا يضعون الكائن الصغير الأحمر كالطماطم جوارها فى الفراش ، ويقولون إنها طفلة جميلة .. كيف عرفوا هذا ؟ كل الأطفال حديثى الولادة لهم وجوه السلاحف ، وينامون ثلاثين ساعة فى اليوم ..

(شريف) يجلس جوارها مؤديًا واجبه كما ينبغى ، فترتجف زاوية فمه وتدمع عيناه ، ويلثم أناملها ، ثم يربت على الرضيعة بحذر ؛ لأنه من الآباء الذين يهابون الأطفال ، ويخشون أن يتفكك الرأس ليسقط على الأرض لو حاولوا حمل رضيعهم ..

* * *

ويحتشد أهلها وأهله فى مكان واحد ، ويا له من مشهد !

يحاول أهله أن يكونوا على طبيعتهم ، بينما يحاول أهلها أن يكونوا أكثر رقيًا ، لكنهم بالتأكيد سيقترفون بعض (الأشياء البلدى) كما ستصفها حماتها (نسل شاه هانم) لصديقاتها فيما بعد :

ـ « سى ترو ! كال سوفاج ! »

لكنها كالعادة ـ ستبدو مجاملة جدًا رقيقة جدًا ، من أجل (شريف) طبعًا ، لأنها ـ الآن فقط ـ تعرف أنه يحبّ زوجته حقًا ..

* * *

ويجلس (شريف) جوارها على طرف الفراش ، يتأملها وهى تستبدل الكافولة المتسخة لرضيعتها ، ويبتسم .. إن دفء الأسرة قد تلاعب برأسه المنهك ، وللمرة الأولى يشعر بقسط من السعادة والرضا ..

ـ « سرنى أنك انهمكت بالأمومة .. »

ـ « المرأة تتنفس الأمومة دون إرادة منها ، فلا خيار لها .. »

ابتسم ، وقال شاردًا :

- « قد لاحظ الدكتور (سبوك) هذا مرارًا .. إن الأولاد يلهون بالمسدسات والعربات منذ البداية ، بينما الفتيات يعبثن بالدُّمى كأنهن يتدربن لا شعوريًا على الأمومة .. وهذا غريب حقًا .. المفترض أن الهرمونات الجنسية لا تعمل فى سن الطفولة .. المفترض أن الأولاد والبنات كائنات متماثلة هرمونيًا ، وبرغم هذا يوجد شىء لا نعرف كنهه ، يجعل البنات يتصرفن كالنساء ، والأولاد يتصرفون كالرجال .. »

بادلت بابتسامته ابتسامة مماثلة ، وقالت :

- « لا أفهم جلّ ما تقول ، لكنى أعرف شيئًا واحدًا : أنا خادمة هذه الطفلة ، وحياتى لا تساوى قلامة ظفرها .. »

ولثمت قدمها الصغيرة المكتنزة فى نهم ..

اضطجع (شريف) على الفراش ، وسألها فى خبث :

- « هل تحبينها أكثر من (فانتازيا) ؟ »

- « طبعًا .. ولكن ما الذى جعل هناك اختيارًا بين الاثنين ؟ من قال إن علىّ الاحتفاظ بـ (شذى) أو (فانتازيا) ؟! »

- « إن (فانتازيا) تبعدك عنها .. »

نظرت لعينيه نظرة صادقة ، وقالت :

- « ساعة واحدة من الحلم كل أسبوعين ليست بالشىء الكثير .. أنت تعرف ما تمثله لى (فانتازيا) .. كأنها زيارة إلى بيت أسرتى حيث أنتمى ، وأنت لن تحرمنى من زيارة أسرتى أبدًا .. »

- « لم يعد (دى - جى - ٢) اختراعًا ذا نفع تسويقى .. »

- « لكنه ذو نفع لى .. إنه يبقينى آدمية وحية حتى الأسبوع التالى .. »

ثم صفرت بشفتيها وهى تنظر للطفلة :

- « يا خبيثة ! لقد فعلتها ثانية فى الكافولة الجديدة ! »

وبدأت تفك الشريط اللاصق ، وهى تكمل كلامها :

- « لقد أتاحت لى (فانتازيا) فرصة لم ولن تسنح لإنسان آخر فى التاريخ .. وما زلت أنت تحاول منعى من اغتنام هذه الفرصة ؟! »

- « إنها الطريق الممهد للإصابة بالخبال .. »

- « لكنى لم أصب به بعد .. ولم أضع كسرولة على رأسى أو أسكب علبة السمن على شعرى .. هذا يطمئنك إلى حدّ ما .. »

★ ★ ★

وهكذا تجدوننا فى الغرفة الشهيرة أمام المشهد ذاته ..

(عبير) والأقطاب على رأسها تغمض عينيها ، وتأخذ شهيقًا عميقًا ، بينما (شريف) يضغط على زرّ الإدخال على شاشة الحاسب الآلى ..

لقد نامت الطفلة ، واستقرت أمور الدار ، واختفت الصحون المتسخة من حوض المطبخ ، وقمصان (شريف) المكوية قد تراصت فى خزانة الثياب ، فما المانع من ..... ؟!

لا مانع ..

فلتبدأ الرحلة الجديدة ..

★ ★ ★

٢ - على ضفاف المسيسبى ..

فى كل مرة يزداد الانتقال سلاسة ويسرًا ..

★ ★ ★

وقال لها (المرشدُ) وهو يداعب قلمه الزنبركى :

- « تك تتك تك ! من هنا يمكنك البدء .. سلام ! »

جذبته من كُم سترته فى رعب ، وصاحت :

- « لحظة ! أنت لا تعطى أية تفاصيل ! »

نظر إلى النهر الممتد أمامهما ، والذى تتلوى ضفافه كالأفعى ، والذى يلتمع فى ضوء شمس الظهيرة الحارّ ، بينما قارب بخارى عملاق له رفاصان جانبيان كبيران ، يتحرك ببطء فى الأفق ..

قال لها وهو يدس القلم فى سترته :

- « الأمر سهل .. هذا هو نهر (المسيسبى) ، وهذه هى قرية (هانيبال) .. ولا أظنك تجهلين أنها موطن الأديب الأمريكى العظيم (مارك توين) هه ؟ لا أظنك بهذا الجهل .. »

ضربت كفًا بكف فى غيظ ، وصعَّرت خدها ..

ـ « أقسم باللّه إننى أسمع هذه المعلومات للمرة الأولى فى حياتى .. من تحسبنى حتى أتذكَر القرية التى ولد فيها كل أديب عالمى ؟ »

ـ « هذه القرية تختلف .. لقد كتب الرجل عنها وعن (المسيسبى) كثيرًا جدًا .. وبالتأكيد أنت قرأت شيئًا عن هذا .. لكنك نسيت .. وهو ذا عقلك الباطن يتولى القيادة كعادته .. »

ثم لوّح بيده متعجلاً :

ـ « وداعًا إذن ! »

ـ « لحظة ! ما الأخطار المتوقعة هنا ؟ »

ـ « لا أدرى خطرًا .. إنها قرية هادئة ساكنة كالخيار ! »

ـ « لكنك أوجدت لى الأخطار حتى فى عالم (ديزنى) ، ووسط البط .. »

ـ « لو لم يوجد خطر فلا مغامرة .. نحن لا نقوم بالسياحة هنا .. لابد من مشاكل ما .. ومن ثم تُولد التجربة المثيرة .. »

وفى هذه المرة لم يودعها ، كى لا تستبقيه أكثر .. ببساطة تلاشى من أمامها ..

الآن بوسعها أن تلقى نظرة أوسع على النهر ، فائق الجمال ، الذى اشتهر بغرابة مجراه ..

لقد خلّد الأديب الأمريكى (مارك توين) هذا النهر فى كتاباته ، وخاصة فى كتابه الشهير (الحياة على المسيسبى) ، ووصف لنا كيف يتلوى النهر بجنون كأفعى ، حتى إنك ـ فى بعض المواضع ـ يمكن أن تغادر قاربك وتمشى على الأرض تاركًا القارب للنهر ، ولسوف يمر القارب أمامك خمس أو ست مرات ، ويمكنك أن تثب لتركبه بعد كيلومترين !

لفظة (مسيسبى) فى ذاتها تعنى (النهر الكبير) بلغة هنود الشمال ، وهو نهر يناسب هذا النعت حقًا .. طوله ٣٧٧٩ كيلومترًا ، وينبع فى (منيسوتا) من بحيرة (إيتاسكا) . ويستقبل أنهار (ميسورى) و (رد) و (أوهايو) و (أركنساس) ، ويمرّ بولاية (إيلينوى) حيث توجد مدينة (القاهرة) ، وهى قاهرة أخرى غير قاهرتنا النيلية طبعًا ..... و .....

لماذا أحكى هذه التفاصيل ؟ لا بد أننى جننت إذن ..

إن (عبير) لاتعرفها ، وماتعرفه (عبير) لايهمنا فى شىء .. لأن هذه هى (فانتازيا) حيث كل شىء من صنع (عبير) ومن بنات أفكارها ، وحدائق مخيلتها ..

★ ★ ★

وكان راقدًا هناك على ضفة النهر ، واضعًا ساقًا على ساق ، مضطجعًا على ظهره ، تمسك أصابع قدمه الحافية بغصن شجرة ربط خيطًا إلى طرفه على سبيل الصنارة ، وتدلّى باقى الخيط فى الماء بحثًا عن سمكة لا وجود لها .. بالطبع ما كان ليمسك الصنارة بيديه لأنه لا يريد إفساد استرخائه ، والاسترخاء يحتاج إلى يدين تحت رأسه على سبيل الوسادة كما تعلمون ..

جواره كان صبى أكبر سنًا يلتهم أجاصة مسروقة ، ويضع على رأسه قبعة من القش ..

يقول ذو القبعة لصاحبه :

ـ « لم لا نهرب يا (توم) لنعمل قراصنة ؟ إن حياتهم كلها مغامرات .. »

يردّ (توم) وهو يتثاءب :



جواره كان صبى أكبر سنًا يلتهم أجاصة مسروقة ، ويضع على رأسه قبعة من القش ..

- « إن ملابسى لا تصلح للقرصنة ، ثم إن عينىَ سليمتان للأسف .. »

وعلى الفور تذكرت (عبير) هذا المشهد الخالد : (توم صوير) الصبى المشاكس وصاحبه (هاكلبرى فان)(*) .. هذان من شخصيات الأدب الخالدة ، وربما أهم شخصيتين فى الأدب الأمريكى بأسره ، وكما أن الأدب الروسى كله خرج من عباءة (جوجول) فإن الأدب الأمريكى خرج من عباءة (مارك توين) .. هذا هو ما قاله أدباء أمريكيون لهم ثقلهم ..

لاحظت (عبير) وهى تقف عن كثب من الغلامين أنها صارت أقصر قامة ، وأنها ترتدى قبعة مزركشة الحواف بالدانتيل ، وأن ثيابها صارت ملائمة للعصر - الذى هو أواخر القرن التاسع عشر - وإن كانت أقرب إلى المريولة .. وكانت قدماها دقيقتين محشورتين فى حذاء أنيق ..

هذه هى الحقيقة : إنها أصغر سنًا .. لابد أن عمرها الآن عشرة أعوام أو أكثر قليلاً ..

(*) جاءا إلى الوجود فى عامى ١٨٧٦ و ١٨٨٤ على الترتيب ..

ترى من أنا ؟ وما اسمى ؟

سؤالان بريئان لكنهما عسيرا الإجابة ، ومن السخف توجيههما على كل حال .. إن (المرشد) الأحمق ينسى كثيرًا فى الآونة الأخيرة ..

لكن (توم) - شكرًا له - أنقذ الموقف ، إذ وثب على قدميه صائحًا :

- « (بيكى تاتشر) هنا ؟! يا لها من مفاجأة ! »

هنا وجدت الكلمات تنساب على شفتيها :

- « (توم صوير) ! أيها الفاسد المتلاف ! سأخبر المعلم أنك تصطاد السمك هنا مع (هاكلبرى فان) ! »

بدا الرعب على وجه (توم) ، والخجل على وجه (هاك) .

فالحقيقة هى أن قرية (هانيبال) كلها كانت تعتبر (هاكلبرى فان) إثمًا يمشى على قدمين ، ولو أمكن إعدامه لكان هذا أنسب .. إن أباه هو سِكِّير القرية ، وهو لا يهتم بإرساله إلى المدرسة أو الكنيسة ، ولا يعرف

أبدًا لأين يذهب ابنه ، ولا يسأله عن وجهته ، والصبى الوحيد فى (هانيبال) الذى يملك الحق فى عدم انتعال حذاء هو (هاكلبرى فان) ..

باختصار : كان الصبى يملك كل ما يدعو الصبية الآخرين لحسده والإعجاب به ، وكل ما يدعو الآباء لكراهيته والرغبة فى خنقه ..

ولهذا كانت تهمة اللعب مع (هاكلبرى فان) جريمة شنعاء .. جريمة تستحق الإعدام دون محاكمة ..

صاح (توم) فى هلع محاولاً اللحاق بها :

- « (بيكى) ! لا تفعلى ! إن عندى فأرًا ميتًا مربوطًا فى خيط ، ولسوف أعطيك إياه .. »

فى شمم هزّت كتفيها :

- « بل سأفعل ! »

- « سأفك أربطة يدى لأريك إبهامى المتقرّح .. هذا مشهد لا يجب أن يفوتك ! »

- « لقد رأيت ما هو أفضل .. والآن وداعًا ! »

وفى كبرياء ابتعدتْ ، عالمة أن (توم) يهيم بها حبًا ، ولن يخنقها كى تصمت بالتأكيد .. إن (بيكى) هى نقطة الضعف الوحيدة فى حياة (توم) .. المحبوبة القاسية المتعالية ، التى لا تمنحه لحظة رضا نفسى واحدة ..

والأمر الذى كانت تعرفه جيدًا بدورها ، هو أنها لن تخبر أحدًا .. لماذا ؟ لأنها تميل بدورها إلى (توم) .. هل يحتاج هذا إلى ذكاء ؟

حبّ الأطفال ! يا له من شىء قاس ! يا له من شىء عذب ! يا له من ألم حارق لذيذ ! قليلون كتبوا عنه برقة وشفافية (مارك توين) وهو يتحدّث عن حبّ (توم) لـ (بيكى) ..

* * *

وكان ذلك الرجل أشيب الشعر ، كثّ الشارب ، ذو النظرات الحادّة ينتظرها فى طريق العودة لدارها ..

يرتدى بذلة بيضاء ، ويدسّ يديه فى جيبه ، ويدخن السيجار ، وعلى شفتيه تتلاعب ابتسامة مشاكسة نوعًا ..

- « مرحبًا يا فتاة ! »

قالت فى كبرياء رافعة رأسها :

- « معذرة .. ولكن أمى قالت لى ألا أكلّم الغرباء ، وأعتقد أنك غريب يا سيدى .. لهذا اسمح لى .. »

بدا واثقًا من نفسه ، غير راغب فى التراجع ..

- « أنا لست غريبًا .. هى قريتى ، وهذا هو عالمى .. يمكن القول دون حذر إننى هو (توم صوير) نفسه .. باختصار أنت ضيفة لدىّ ومن أبسط قواعد اللياقة أن تردّى علىّ .. »

للحظة نظرت إليه فى شك ، ثم تذكّرت شكله :

- « أنت ؟ أنت ؟ »

- « (مارك توين) ! أنا هو شخصيًا .. »

- « تبدو لى أكثر قبحًا مما تصوّرت .. »

وضع يده على كتفها فى بساطة ، ومشى الهوينا جوارها :

- « لأن الأحداث الجسام تركت ندوبها فى وجهى ..

لقد كنت فى الماضى وسيمًا ، حتى إن النساء كن لا يعرفننى إذ يحسبننى نهارًا مشمسًا !

ثم شهدت موت شقيقتى وابنى وابنتىَ وزوجتى .. لقد شاب شعر رأسى فى دقائق ، وأنا أرى احتراق القارب الذى كان شقيقى على ظهره .. بعد هذا كله أعتقد أن جمال الشكل ترف لا أستأهله .. »

- « وبرغم هذا لم تكف عن السخرية ؟ »

- « بل من أجل هذا لم أكفَّ عن السخرية .. »

وسعل قليلاً ، ثم أردف :

- « إننى أضحك كى لا أنتحر كما يقول (فولتير) .. وقد صار مملاً أن نعرف فى كل مرّة أن أعظم الساخرين كان يحمل حزن الأكوان فى قلبه .. وحين تغزر الدموع قد تتجمد الشفتان فى ابتسامة مريرة .. »

سألته وقد رقت لكلماته :

- « إن لك اسمًا طويلاً معقدًا على ما أذكر ؟ »

- « اسمى الأصلى هو (صمويل لانجهورن كليمنز) ..

لكن (مارك توين) هو اسم اخترته لكتاباتى الساخرة ، وهو مصطلح من مصطلحات الإبحار فى المسيسبى معناه (علَمْ على اثنين) .. ربما لاتعرفين أننى قضيت صباى مرشدًا على ظهر قارب بخارى فى (المسيسبى) ، ولقد عشقت هذا النهر وأحببته كما أحببت كفَّ يدى .. وإن كان تعلُّم تضاريسه شديدة التعقيد أمرًا شديد العسر فى بدايته(*) .. »

كانت قد وصلت إلى منزل عتيق ـ لكنه فاخر ، أدركت دون جهد أنه منزلها .. قال لها (مارك توين) :

ـ « هذا هو منزل القاضى (تاتشر) أبيك .. إنه رجل مهمّ ، لكنه بالنسبة لـ (توم صوير) أعظم رجل فى الكون .. ألم ينجبك ؟ هذا إنجاز مذهل قائم بذاته ..

سألته وهى تتحرّر من يده على كتفها :

ـ « لماذا ظهرت لى الآن ؟ »

(*) لهواة الأرقام : ولد (مارك توين) عام ١٨٣٥ وتوفى عام ١٩١٠ .

بصق على الأرض بعد ما سعل .. (وكان مارك توين من هواة السعال والبصاق كما وصفه معاصروه) وقال :

ـ « أردت أن أخرجك من حيرة وجدتك فيها ، وأن تبتعدى عن الإسبانى (أنجان جو) فهو يحبّ إخراج أحشاء أعدائه بمطواة صدئة ! »

بدا لها الأمر مخيفًا .. فهناك أسبانى يخرج أحشاء ضحاياه بمطواة ـ وهذا الأسوأ ـ صدئة .. لا تذكر أنه كان فى القصة شىء كهذا ..

لكن (توين) ابتسم ، وقال :

ـ « بل كان فيها شىء كهذا .. لكنك نسيت .. مشكلة قصصى الدائمة هى افتقارها للدافع السردى ووحدة الموضوع ، حتى بدت لبعض النقاد كأنها مجموعة من المشاهد تمّ جمعها فى كتاب واحد .. هذا رأيهم ولا ألومهم عليه .. إن كتبى سلسلة من الملاحظات الساخرة التى تسمو لمرتبة الشعر ، لكنها خالدة وستظل كذلك متحدية أى إطار أدبى .. »

لم تفهم أكثر كلماته ، فهى بلهاء كالنعامة ، ثم إنها الآن أقرب إلى سن الطفولة ، لهذا حيته تحية المساء وهرعت إلى دارها ..

إن الأحداث ستفصح عن نفسها ، وماسيكون سيكون ..

★ ★ ★

٣ـ شاهدان ..

من هو (أنجان جو) ؟

فى الحقيقة لا بد أن نعود للوراء بضع ساعات كى نعرف القصة كلها ..

★ ★ ★

- إلى أين ذهب (توم) و (هاك) عند منتصف الليل ؟

- طبعًا ذهبا إلى المقابر ..

- لماذا ذهبا ما دامت هذه ليست قصة رعب ؟

يا له من سؤال ! طبعًا ذهبا للتخلص من السنط !

- هل يوجد لدى (توم) سنط ؟

- طبعًا .. فهو يلعب بالضفادع كثيرًا !

- لماذا حملا قطة ميتة معهما ؟

- يا له من سؤال ! كيف يمكنك التخلص من السنط ما لم تكن معك قطة ميتة ؟!

حسب القواعد الطبية لقرية (هانيبال) توجد عدة طرق للتخلص من السنط فى اليدين :

(ا) الماء الباقى بعد المطر : يمكنك أن تغمس يدك فى جذع شجرة قد تجمع فيه ماء المطر .. تلصق ظهرك بجذع الشجرة وتدس يدك فيه ، ثم تمشى إحدى عشرة خطوة مغلق العينين ، ولا تكلم أحدًا ، حتى تعود إلى دارك ..

(ب) طريقة حبة الفول : هنا يمكنك تقسيم حبة الفول إلى فلقتين ، ثم تلطخ الفلقة الأولى بالدم المتخلف من السنطة .. عند منتصف الليل ادفن الفلقة فى مكان يتقاطع فيه طريقان ، واحرق الفلقة الأخرى .. الفكرة هنا هى أن إحدى الفلقتين تحاول اللحاق بالأخرى ، وبالتالى تزول السنطة ـ لا أدرى كيف فى الواقع ..

(جـ) طريقة القطة الميتة : تذهب للمقابر ومعك قطة ميتة .. بشرط أن يكون مجرم قد دُفن فى اليوم السابق .. انتظر حتى منتصف الليل حين يجىء الزبانية ليأخذوا جثة المجرم ، عندها تقذف القطة فى إثرهم وصِحْ : « يا شياطين اتبعوا الجثة .. يا قطة اتبعى

الشياطين .. يا سنطة اتبعى القطة ! » ويقال إن هذا علاج ناجع جدًا ..

وكما قلنا آنفًا كان (توم) يملك الكثير من السنط فى يديه ، ولديه هدية ثمينة هى قطة ميتة متصلبة ، وهناك شرير دُفن اليوم بعد شنقه هو (هوس وليامز) ..

كان الإغراء قويًا ، وبرغم أن الغلامين كانا يرتجفان رعبًا من زيارة المقابر عند منتصف الليل ، لكن أحدهما لم يجرؤ على الاعتراف بهذا .. إن أشجع الشجعان فى التاريخ هم .. ببساطة ـ أناس خافوا أن يبدو جبناء ..

الآن نعرف لماذا اتجه (توم) و (هاك) إلى المقابر فى تلك الليلة السوداء كقلب كافر ..

* * *

كان الظلام دامسًا ، وكان حفيف الأشجار مع الريح شبيهًا بهمس الموتى .. لكن الغلامين تماسكا ، وشقا طريقهما ليتواريا خلف شجرة عملاقة ..

قال (توم) وهو ينتفض :

ـ « لا أحب هذا كثيرًا .. لو أن (هوس وليامز) رفع رأسه الآن من التراب وقال شيئًا ما ! »

صاح (هاك) وهو يتصوّر الفكرة ، فيوشك شعره على أن يشيب :

ـ « أوه يا (توم) ! لا تقل هذا أرجوك .. ولا تدع الرجل إلا مسبوقًا بلقب (السيد) .. قد يثير هذا جنونه !

وطفق الغلامان ينتظران .. رؤية المشهد الرهيب القادم ..

وعند منتصف الليل بدقة ؛ برزت لهما ثلاثة أطياف تتقدم فى إصرار نحو قبر (هوس) .. كان أحد الأطياف يحمل مصباحًا يستهدى به ..

وهنا غدا من العسير منع (هاك) من الصراخ أو الجرى ..

ـ « (تووم) ! لقد جاءوااااا ! »

ـ « اصمد يا أحمق لا تثر حنقهم ! »

ثم دقق النظر أكثر فأدرك أن القادمين بشر .. بشر عاديون مثلى ومثلك .. وبالتحديد هم (إنجان جو) الإسبانى الشرس الذى وفد إلى القرية منذ عام ، و (روبنسون) طبيب القرية ، و (ماف بوتر) العجوز ،

وهو رجل طيب لا يقل نفعًا ولا يزيد ضررًا على كرسى المطبخ ..

ساد الصمت إلا من الأنفاس الثقيلة للصبيين ..

ثم إن (توم) فهم ما يحدث .. إن (إنجان جو) يقوم بنبش قبر الشرير ، الذى دفن هاهنا اليوم .. والغرض معروف .. كل الأطباء يحتاجون إلى جثث لسبب غير مفهوم ..

هنا حدثت مشادة بين الطبيب والإسبانى الشرس .. مشادة حول الأجر .. لو لم يدفع الطبيب المزيد من الدولارات فإن الجثة ستبقى حيث هى .. وسرعان ما تتطور المشادة إلى معركة حقيقية بالأيدى ، يحاول (ماف بورتر) فى أثنائها التدخل ، لكن الطبيب يوجه له لكمة بارعة تفقده الوعى .. وتسقط مدية (بورتر) من جيبه إلى الأرض ..

وفى اللحظة التالية يدرك الطبيب مدى حماقته .. قليلون هم من يجرءون على استفزاز (إنجان جو) ثم لا ينالون طعنة بمديته الصدئة فى قلوبهم ، ولم يكن الطبيب ممن يشذون عن القواعد ..

اخترقت المدية صدر الطبيب .. فقال شيئًا ما لا معنى له ، ثم سقط إلى الغبار ، ولفظ أنفاسه ..

وقف (إنجان جو) يرمق نتيجة عمله ، ويفكّر .. ثم قرّ قراره ، ففتح كف (ماف بورتر) ودسّ المدية بها ، ثم ساعد البائس على الإفاقة ..

فتح (بورتر) عينيه ليجد مشهدًا مخيفًا حقًا ، وتساءلت عيناه فأجابه (بورتر) أن نعم :

- « نعم .. لقد قتلت الطبيب يا صديقى دون أن تشعر ! »

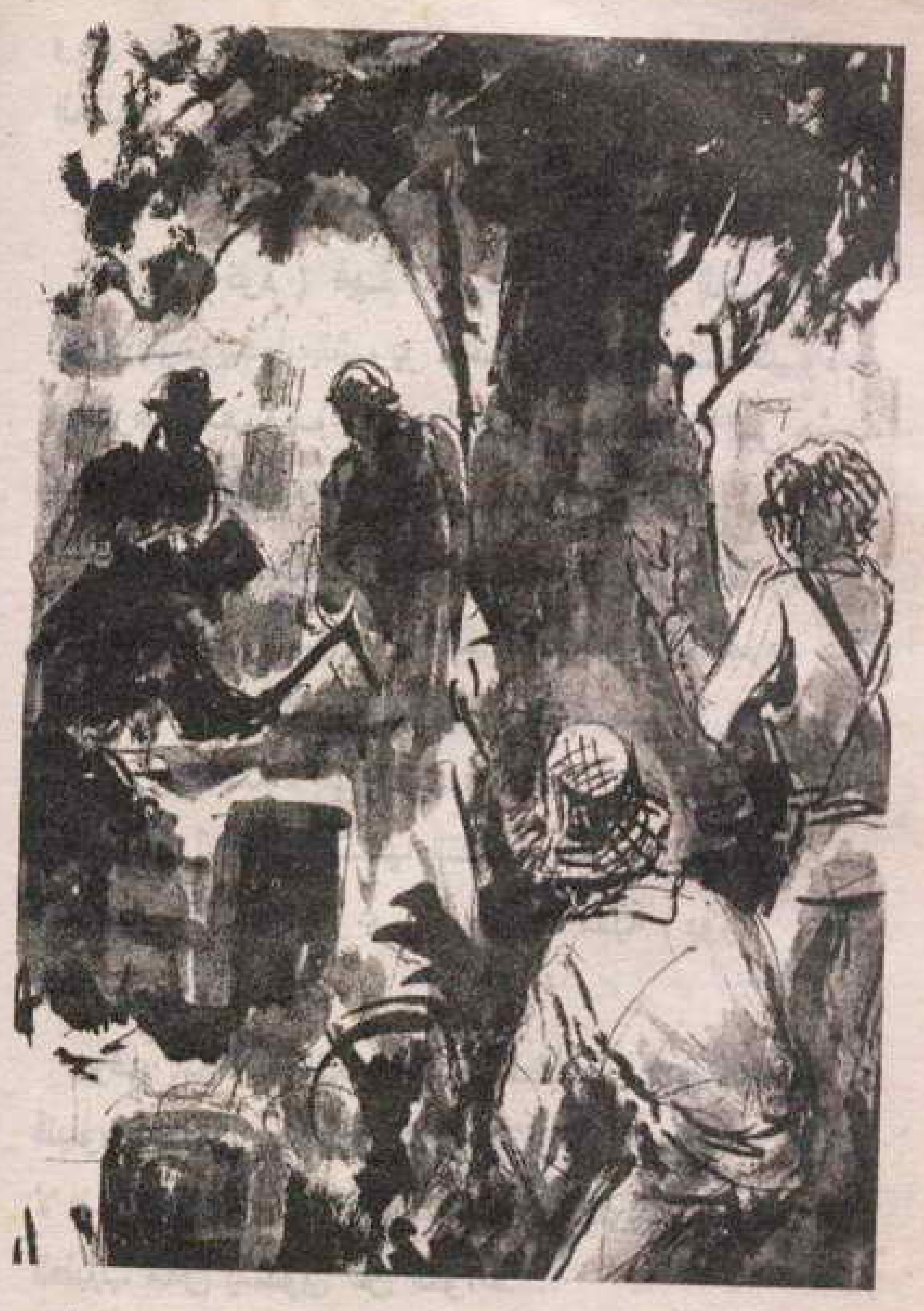
راح (بورتر) يرتجف ويبكى كالأطفال :

- « أنا لم أرد هذا قط .. الطبيب رجل طيب وأنا أطيب منه .. (إنجان) يا صاحبى .. قل لى إن هذا غير صحيح ! »

- « بل هو صحيح وحدث .. »

- « أنت لن تخبر به أحدًا .. هه ؟ »

وجثا على ركبتيه عند قدمى الرجل ، وراح يلثم أطراف سرواله القذر متوسلاً :



ثم إن (توم) فهم ما يحدث .. إن (إنجان جو) يقوم بنبش قبر الشرير ، الذى دفن ها هنا اليوم ..

- « أنت ملاك ، ولسوف تبقى سرّى هذا .. »

فى غطرسة ساعده الإسبانى على النهوض ، ويتسامح وعده أنه لن يفشى السرّ ، ثم طلب منه أن يفرّ ..

طبعًا فرّ (بورتر) على الفور ، وكعادة الحمقى ترك مديته جوار الجثة واختفى ..

وبعد دقائق ساد الصمت الرهيب .. لم يعد من شهود على هذه المأساة إلا ضوء القمر الأزرق البارد الأرستقراطى ..

* * *

هذه كانت البداية لكنها لم تكن النهاية قط ..

لنا الآن أن نتصورّ الصبيين يهربان مذعورَين عبر الحقول المظلمة نحو قرية (هانيبال) الهادئة الآمنة .. كاد قلباهما يحلقان بلا أجنحة ، وبدا لهما كم أن أقدامهما عديمة النفع بطيئة جدًا ..

وأخيرًا حين استطاعا التوقف ؛ كانا يلهثان كمصاصى الدماء ، ويجرعان الهواء كغواص نفد الأوكسجين منه ..

قال (توم) أخيرًا :

- « يجب أن نصمت كقبرين .. إن (إنجان جو) قد رتّب الأمر كى يتهم (ماف بورتر) ، ولو عرف أن هناك شاهدين فلسوف تكون نهايتنا ، ولن ينقذنا شىء .. يجب أن نقسم قسم الصمت ! يجب أن نكتب بالدم عهدًا على أن نظل صامتين ! »

وكذا ثقب (توم) إصبعه بدبوس - لم يستعمل النحاس ؛ حتى لا يتسمم كما قال - وكتب تعهدًا على لوح من خشب ، يقسم فيه أن يمسك لسانه عن الثرثرة ..

لم يكن (هاك) يعرف كيف يكتب أول حرف من اسمه ، لكن (توم) علمه سريعًا كتابة الـ (H) والـ (V) .

وطبقًا لهذا القسم يسقط ميتًا أول من يتكلم منهما ..

وكان أن نبح كلب ضال قربهما فى هذه اللحظة فارتجفا ذعرًا ، فإن معنى هذا فى (هانيبال) لا يتغير : الموت القريب لمن يسمع نباح الكلب ..

قال (هاك) وهو فى أسوأ حالات الذعر :

ـ « يقال إن كلبًا غريبًا نبح عند بيت (جونى ميلر) منذ أسبوعين ، فهل تعرف ما حدث بعدها ؟ »

ـ « لا .. »

ـ « تصوّر أن أحدًا لم يمت هناك ؟! »

هزّ (توم) رأسه فى حكمة ، وقال :

ـ « هذا لا يدلّ على شىء .. إن (جونى ميلر) سيموت حتمًا ولا مفر أمامه .. هذا ما يقوله الزنوج ، وهم يفهمون فى هذه الأمور يا (هاك) .. »

ويلاحظ القارئ دائمًا أن (توم) يلعب دور أستاذ الجامعة المثقف بالنسبة لـ (هاكلبرى فان) ، بينما يلعب الأخير دور كل شىء آخر بالنسبة لـ (توم) ! إن (هاك) يمثل لـ (توم) كل أحلام الحرية والشيطنة والهروب من المدرسة والخفاء .. بينما يمثل (توم) لـ (هاك) المثقف الغامض العليم بكل شىء .. والخلاصة هى أن علاقتهما لا تنفصم أبدًا ولن تتكرّر ..

★ ★ ★

لنا الآن أن نتصورَ ما أصاب القرية الهادئة حين وجدت جثة (روبنسون) الطبيب فى المقابر ، وهو حادث لا يقع إلا كل ٤٧٦ سنة فى العادة ، وصار حديث الساعة وكل ساعة ، وسلوى النساء ، ولعب الأطفال ، وهمس الكهول إذ يحتشدون فى الحانة .. حتى إن ناظر المدرسة اضطر لاعتبار يوم اكتشاف الجثة إجازة رسمية !

طبعًا كانت مدية (ماف بوتر) جوار الجثة ، وكان هذا كافيًا كى يصدر الحكم العام عليه بالإدانة ..

وأخيرًا جاء دور (بورتر) ليجىء به رجال العمدة ، باكيًا مولولاً ككلب يقتادونه إلى الرمى بالرصاص ، وراح يردّد :

ـ « لم أقتله يا رفاق ! أقسم بشرفى إننى لم أقتله ! »

هنا تساءل أحد الواقفين فى ذكاء :

ـ « وهل اتهمك أحد بقتله ؟! »

وبدا للجميع أن هذه الرمية موفقة أصابت مقتلاً ..

ـ « إذن اسألوا (إنجان جو) عما حدث ! »

وفى ثقة وهدوء يثيران الإعجاب راح (جو) يحكى قصته الزائفة ، وهى كذلك فعلاً بالنسبة لصديقينا فحسب ..

لشدّ ما أثار ذهول الصبيين أن يحكى امرؤٌ قصة كاذبة بهذه الثقة ، وتوقعا أن تهبط صاعقة من السماء لتقتل الإسبانى لكن هذا لم يحدث ..

ما هبط بالفعل على الصبيين كان شعورًا قاتلاً بتأنيب الضمير .. إن تزوير الشهادة إثم ، لكن كتمانها لا يقل إثمًا ..

وفى الليل قضى (توم) ليلة نابغية حقًا ، وراح يتقلب ويعوى ويعرق ، وتقول العمة (بولى) مربية (توم) إنه راح يردّد :

ـ « دم ! دم ! »

هكذا وجد (توم) نفسه فى مأزق ، فلم يكن يعرف أنه يتكلم فى أثناء النوم ، وكان يحسب هذا مقصورًا على الفتيات !

فى الصباح التالى زعم أن أسنانه تؤلمه ، وربط فكّيه

بشدّة برباط محكم ، واعتاد أن ينام بعد ما يتأكد من أنه عاجز عن التثاؤب ..

لكن (سيدنى) الصغير المشاكس الذى ينام معه ، اعتاد أن يفك الرباط قليلاً ؛ ليسمع ما يقول (توم) من كلام مخلوط ..

وحتى هذه اللحظة لايعلم أحد حقيقة ما سمعه (سيدنى) ليلاً ..

كان (توم) يزداد تعاسة ، ومقتًا للحياة ..

حتى دنا يوم المحاكمة ..

* * *

٤ـ شاهد واحد ..

فى ليلة المحاكمة ، ذهب (توم) مع (هاك) إلى السجن ، وقد حملا بعض التبغ وأعواد الثقاب لـ (ماف بورتر) البائس ..

كان (بورتر) كما قلنا لطيفًا ككرسى الحمام ، ووديعًا كفرشاة الأسنان ، وقد شكرهما كثيرًا ، ومع كل عبارة شكر كان خنجر ينغرس فى ضمير الغلامين ..

قال (هاك) للرجل :

ـ « أنت رجل طيب ، وقد أعطيتنى نصف سمكة ذات مرة .. »

فى أسى قال (بورتر) وهو يريح ذقنه الشحمية على إطار النافذة :

ـ « لقد كنتما شديدى العطف علىّ ، كنتما الصديقين الوحيدين لـ (بورتر) التعس الذى اعتاد أن يعين صبية القرية على صيد السمك ، ويصلح لهم ما فسد من

ألعابهم .. واليوم تجاهلنى الجميع ما عداكما .. هلما ! أدخلا أيديكما الصغيرة النظيفة التى لم تتلوث عبر قضبان النافذة ، علّنى ألمسها وألثمها وأمنحها عرفانى .. قربا وجهيكما من النافذة كى أراهما ، وأعرف آخر صديقين لى على ظهر الأرض !

الخلاصة هى أن كلماته كانت منتقاة بعناية ، لتجعل الصبيين فى أتعس حال .. وشعر كل منهما بأنه جدير بأن يدخل التاريخ مع كل الجبناء والرعاديد والخونة .. حتمًا سيكون لهما موضع متميز هناك !

★ ★ ★

فى الصباح تحتشد القرية كلها عند المحكمة ..

جاءوا بـ (بورتر) مكبلاً بالأغلال ، فراح كل المحظوظين الذين استطاعوا دخول المحكمة يرمقونه فى فضول .. ومن بينهم (إنجان جو) طبعًا ..

ثم جاء القاضى فأمر باستدعاء الشهود ..

الشاهد الأول رأى (جو) يغتسل عند النهر صبيحة الجريمة ..

- « هل يريد محامى (بورتر) استجواب الشاهد ؟ »

فى وقار قال المحامى :

- « لا يا سيدى .. »

الشاهد الثانى رأى مدية (جو) جوار الجثة ..

- « هل يريد المحامى استجواب الشاهد ؟ »

- « لا يا سيدى ! »

الشاهد الثالث رأى (بورتر) يخرج ليلة الجريمة ومعه مديته ..

- « هل يريد المحامى سؤال الشاهد ؟ »

- « لا يا سيدى ! »

هنا علت الهمهمات .. هذا المحامى تنقصه الحماسة ، أو ربما هو متحمس جدًا لإعدام موكله .. حتى القاضى رمقه فى شىء من اللوم ..

هنا نهض المحامى - أخيرًا - وقال :

- « اليوم يا سيدى القاضى لن ندافع عن (بورتر) باعتباره كان ثملاً حين ارتكب الجريمة ، بل سندافع

عنه باعتباره لم يفعلها أصلاً ، وإننى لأرجو استدعاء (توماس سوير) ! »

امتلأت القاعة بالدهشة ، حتى لم يعد فيها موطئ لقدم ، ودخل (توم) مع الحاجب وساقاه توشكان على التخلى عنه ..

- أين كنت يا (توماس) فى منتصف ليلة ١٧ يونيو ؟ »

- « فى المقبرة ! »

- « من كان معك ؟ »

- « هـ .. هـ .. (ها كلبرى فان) ! »

- « وماذا كان معك ؟ »

- « قـ .. قطة ميتة ! »

هنا تعالت الضحكات ، بينما بدت ضحكة متوحشة على شفتى (إنجان جو) .. وكالعادة قرع القاضى المنضدة مرارًا ؛ ليعمّ الهدوء الجلسة ..

وانطلق لسان الصبى ، فراح يحكى القصة كلها .. كيف أغشى على (بورتر) ، ثم انتهز (جو) الفرصة ليولج مدية (بورتر) فى صدر الطبيب .. و .....

كانت الدقيقة التالية مثيرة جدًا ، لأن (إنجان) وثب ليهشم زجاج النافذة ، ويختفى ركضًا مبتعدًا عن المكان ..

★ ★ ★

وهكذا وصلت القصة إلى ذروتها ..

لقد نال (توم صوير) كثيرًا من الشهرة والمجد ، لكنه نال كذلك قدرًا لا بأس به من الرعب .. فالإسبان حاروا الدماء مولعون بالانتقام .. (إنجان جو) إسبانى وحرّ طليق .. وهذا يعنى .....

ولقد آمن كثيرون – ومنهم (مارك توين) المؤلف نفسه كما رأينا – أن (توم) قد صار بطة ميتة .. صار تاريخًا كما تقول التعبيرات الأمريكية ، التى تحمل جميعها المعنى ذاته ..

كانت هذه هى الظروف التى لا بد من إيضاحها قبل أن نسترسل فى قصتنا هذه ..

★ ★ ★

كانت (بيكى تاتشر) / (عبير) على علم بكل هذه

الأحداث ، وكان أبوها هو القاضى الذى حاكمَ (بورتر) .. لهذا بدا لها (توم) شخصًا أسطوريًا لا يمكن أن تصدق وجوده ما لم تره .. إنه بطل جسور لا يهاب المقابر ليلاً ، وينقذ الأبرياء من حبل المشنقة الملتف حول أعناقهم ..

لكن أباها قال لها على مائدة العشاء :

– « إن (توم) بطة ميتة .. »

وأردف مفسرًا وهو يلتهم باقى الخبز :

– « (إنجان جو) مختف .. وقد جاءنا من المدينة رجل بارع فى هذه الأمور ، ممن يحملون عدسة مكبرة ، ويبحثون عن (دليل ما) .. لكنه فشل فى العثور على الإسبانى .. لقد صار (توم) بطة ميتة .. »

وكانت هى تسمع هذا التعبير أكثر من اللازم هذه الأيام ..

ازداد قلقها على (توم) .. لكنها فى الآن ذاته ازدادت تعلقًا به ..

★ ★ ★

فى الوقت ذاته كان (توم) يلعب لعبة مختلفة معها فى المدرسة ..

بدأ يتجاهلها ، وينصب شباكه حول طفلة أخرى ، تدعى (آمى لورانس) .. ومن أجل (آمى) هذه كان يتمرغ فى الوحل ، ويغرس الدبابيس فى ظهور التلاميذ الجالسين أمامه ، ويأتى بحركات مضحكة بعضلات وجهه .. كان يستعمل كل سحره الرجولى ليبهر (آمى) ..

أثار هذا حنق (بيكى) وصممت أن تنتقم ..

كانت (بيكى) الآن تشعر بكل مشاعر الأنثى البالغة التى تخلى عنها حبيبها ، بمجرّد أن نجح فى الحياة ، وهو نفس شعور المرأة البسيطة الفقيرة التى تتزوج من طالب ، وتعينه على التفوق والنجاح ، فإذا ما صار عضوًا فعالاً فى المجتمع بدأ يفتش عن زوجة أخرى تليق به ، وتناسب مكانته الاجتماعية الجديدة ..

صممت (عبير) / (بيكى) على الانتقام ، وكانت تلك المدرسة من المدارس التى يترك فيها التلاميذ كتبهم عند الانصراف لمنازلهم ..

لذا توجهت فى ساعة مبكرة إلى الصف ، حيث لم يكن من شهود عليها سوى ضميرها ، وفتحت كتاب (توم) وأفرغت عليه زجاجة مداد كاملة ! إن ضمير المرأة التى جرحت كبرياؤها ينام غالبًا ..

الآن تم عقاب (توم) .. وحان وقت الاستمتاع ما دامت وحدها ..

كان المدرّس ـ مستر (دوبينز) ـ من الذين تمنوا أن يكونوا أطباء ، لكنهم فشلوا .. لهذا كان يحتفظ بعدّة كتب طبية فى صوانه ، ولم يكن أحد يطلع عليها أبدًا ، وكان يحرص على ألا يراه أحد وهو يطالعها ؛ باعتبار هذا هو سرّه الصغير ..

اليوم جاءتها الفرصة على طبق من فضة ..

تسللت إلى صوان الرجل ومدّت يدها مرتجفة إلى أحد هذه الكتب ، وفتحته ..

كان مطبوعًا بألوان بهيجة على ورق مصقول .. واستطاعت أن ترى رسومًا تشريحية جميلة حقًا لجسم الإنسان ..

هنا شعرت بمن يدنو منها فأجفلت :

وكانت الكارثة ؛ لأن صفحة الكتاب التى كانت تمسك بها تمزقت ..

كان القادم هو (توم صوير) ذاته ..

أعادت الكتاب إلى الصوان وانفجرت باكية :

ـ « يا لك من نذل يا (توم صوير) ! كيف تسمح لنفسك بالتسلل لاستراق النظر إلى ما أفعله ؟ »

هزّ يديه فى حيرة :

ـ « وكيف كان لى أن أعرف أنك هنا ؟ وأنك تفعلين هذا ؟

فى عنف ضربت الأرض بقدميها :

ـ « أنا أكرهك كالجحيم ! أعرف أنك ستشى بأمرى ، وتخبر المدرس بسرّى .. ربّاه ! سأتلقى علقة رهيبة .. أنا التى لم أضرب من قبل فى المدرسة ! افعل ما تريد ، واعلم أننى أكرهك بشدّة .. أكرهك ! أكرهك ! »

وفارقت المكان غاضبة ..



هنا شعرت بمن يدنو منها فأجفلت : وكانت الكارثة ؛ لأن صفحة الكتاب التى كانت تمسك بها تمزقت

شعر (توم) أولاً بالذنب .. فقد نجحت الفتاة بمعجزة ما فى جعله يبدو بمظهر الآثم الوحيد فى الموضوع ، بينما لاذنب لها ..

بعد قليل شعر بحيرة .. يا لحماقة الفتيات ! ما الذى يخجلها من أن تضرب فى المدرسة ؟ أى مجد فى ألايتلقى الإنسان علقة من المدرس أبدًا ؟ عسير أن يفهم هذا ..

لكنها ستتكلم .. بالتأكيد ستتكلم .. الفتيات لا يستطعن إخفاء سر .. وستكون هى الواشية لا (توم) ..

وتمنى لو كان هو المسئول عن الموقف ، فهو اعتاد هذه الأمور ويعرف كيف يعالجها ..

★ ★ ★

وكانت اللحظات التالية رهيبة حقًا ..

لقد جاء المعلم متعكّر المزاج كعادته ، وبدأ التفتيش على الكتب .. كان كتاب (توم) الملوّث بالحبر هو بداية الغيث فى هذا اليوم .. ولقد تلقى علقة شنيعة عقابًا له (كالعادة فى الواقع) ..

لكن (توم) لم يشعر بأنه مظلوم .. لقد أنكر .. لكن هذا لم يكن عن إيمان ، بل على سبيل التعوّد ، وبينه وبين نفسه لم يستبعد أن يكون قد سكب المداد على كتابه دون أن يفطن لذلك ..

الآن يجلس المدرس إلى منضدته .. يستدير ليفتح صوانه ، ثم يمدّ يده يختار كتابًا يطالعه ، بينما التلاميذ يكتبون دروسهم ..

يده تقع على الكتاب الطبى إياه .. لا بد من هذا ..

لحظة .. ثم ارتفعت يده حاملة الورقة الممزقة ..

وتحولت عيناه إلى عينى مذعوب أتم التحوّل من فوره .. عينان ترغمان أيًا مَنْ كان على إرخاء عينيه ..

- « من فعل هذا ؟! »

ساد صمت رهيب ..

- « من فعل هذا ؟ »

لا أحد يردّ طبعًا .. لكن وجه (عبير) كان يصرخ بوضوح : أنا فعلتها .. أنا فعلتها !

ـ « هل فعلت هذا يا (جاك هاربر) ؟

هزّ الصبى رأسه فى رعب أن لا ..

ـ « هل فعلت هذا يا (بنيامين روجر) ؟ »

ـ « لـ .. لا يا سيدى ! »

وببطء مضى الدور المخيف ..

ـ « (ربيكا تاتشر) .. هل فعلت هذا ؟ »

الآن صار الهلع سافرًا على وجه الفتاة ، وراحت ترتجف من رأسها إلى أصابع قدميها .. لم يكن ينقصها سوى تكرار السؤال حتى تتكلم ..

ـ « (ربيكا تاتشر) .. هل فعلت هذا ؟ أجيبى وأنت تنظرين لعينى ! »

فى الثانية التالية ، وقبل أن تحدث الكارثة وتتكلم ، وثب (توم) صائحًا :

ـ « أنا الذى مزقت الكتاب يا سيدى ! »

* * *

٥ ـ حُبٌ وحرب ..

كان العقاب جديرًا بسرده فى قصص الأساطير ، ليتخذ مكانه بجدارة إلى جوار عقاب (تانتالوس) و (سيزيف) و (برومثيوس) ، وأرجو ممن لايذكرون هذه الأسماء أن يراجعوا الكتيب السابع ، لأن شرح هذه الأمور يطول ..

لكننا ـ كما نتوقع ـ نعرف أن (توم) كان سعيدًا راضيًا ، وكان العقاب المرير يزيد عذوبة الساعات القادمة ، حين يلقى (بيكى) على انفراد ، وتخبره كم هو نبيل نادر الطراز حقًا ..

* * *

كان حبهما ينمو .. ربما لأن (عبير) فى الحقيقة أكثر عاطفية من (بيكى تاتشر) ، وهى برغم تصرفاتها وصغر سنها تحمل قلب فتاة فى العقد الثالث من العمر ..

والبداية واحدة دائمًا :

يدخل (توم) الصفَ متأخرًا ، فيسأله المدرس فى فظاظة :

ـ « أين كنت يا صبى ؟! »

فيردّ (توم) فى ثبات :

ـ « كنت مع (هاكلبرى فان) ! »

فتتسع عينا المدرس لهول الاعتراف :

ـ « أنت تمزح يا صبى .. هلا كررت ما قلت ؟ »

ـ « كنت مع (هاكلبرى فان) !! »

وهو الاعتراف الذى يأبى المدرس تصديقه .. ربما لو قال (توم) إنه كان مع القراصنة يذبحون طاقم سفينة تجارية ، أو لو قال إنه كان يرقص حول النار مع قبائل (الزولو) ، لكان المدرس على استعداد للتصديق أو التسامح ، لكن (هاك فان) هو أسوأ من يمكن تمضية الوقت معه فى القرية ، وليكونن العقاب حاسمًا :

ـ « اذهب لتجلس مع البنات ! »

والمقعد الوحيد الخالى عند البنات هو المقعد المجاور لـ (عبير) ، وهكذا يهرع الغلام مسرورًا منتشيًا ليمضى اليوم مع محبوبته الشقراء ..

ربّاه ! يا لها من ساعات تمضى كالحلم ، وهما يعيشان فى عالم رومانسى :

يلاعبان (قرادة) حية تزحف على خط بالطبشور رسماه على المنضدة أمامهما .. يتكلمان عن الفئران الميتة ، التى يربطون ذيولها بالخيوط ويديرونها حول رءوسهم .. يتحدثان عن الضفادع والأسنان المخلوعة ، وكل ما من شأنه أن يجعل الحياة أكثر بهجة ..

فى أحيان معينة يشعر (توم) بشىء كفكىَ حوت يطبق على أذنه ، ويرغمه على الوقوف .. عندها يدرك أن المدرس تسلل من خلفهما ليرقب لعبهما بالقراءة ، وذلك دون أن يشعرا طبعًا ..

ويكتم التلاميذ ضحكاتهم ، بينما المدرس يرمق (توم) بنظرات سفاكة ..

★ ★ ★

كان (توم) فى عالم خيالى من النشوة ، ولكم دار حول البيت الجميل ، عند أطراف القرية آملاً فى أن يراها ولو شبحًا من بعيد ..

أحيانًا كان رأس أشقر يتبدى فى النافذة ، ثم تسقط وردة حمراء هناك جوار السور ..

كان (توم) يتظاهر بأنه يلعب ألعابًا بهلوانية ، ثم يمد أصابع قدمه العارية ليلتقط الزهرة ، ويتواثب مبتعدًا ..

* * *

كان اليوم هو يوم الأحد ..

والأحد إجازة بالطبع هناك ، لكن الأطفال يذهبون لمدارس الأحد ، ومشكلة (توم) الدائمة هى حفظ (موعظة الجبل) لأن عقله كان يهيم فى آفاق الفكر الإنسانى بأسره ..

المشكلة الثانية : هى اضطراره لغسل وجهه .. وكانت طريقته الفعالة هى أن يدخل الغرفة المعدة للاغتسال ، فيشمر عن ساعديه ثم ـ دون تأنيب ضمير ـ يسكب الماء على الأرض ..

ويعود ليجفف وجهه بالمنشفة لاهثًا .. لكن (مارى) سرعان ما تكتشف هذا وتأمره بالاغتسال جديًا ..

يغسل وجهه على عدة مرات .. وفى كل مرة يفتضح الأمر ؛ لأن الأجزاء القذرة من وجهه تبدو أكثر وضوحًا ..

المشكلة الثالثة : هى قيام (مارى) بتصفيف شعره ، وكان (توم) يمقت الشعر المصفف ويجده سببًا لتعاسة لا تنتهى ، فهو علامة لا ريب فيها على الأنوثة ..

المشكلة الرابعة : هى ارتداء الحذاء .. ولم يكن (توم) يرتدى الحذاء إلا يوم الأحد .. وكان يؤمن بأن الأحذية أجهزة تعذيب لا أكثر ..

وهكذا ، متأنقًا كعريس ، يخرج (توم) إلى مدارس الأحد ..

كان فى هذا الصباح يدبّر مؤامرة صغيرة ترفعه درجات فى عينى (بيكى) الحسناء ..

وإليك التفاصيل ..

* * *

كان المدرس فى مدرسة الأحد قد وضع سياسة مقايضة لجعل تلاميذه يحفظون عددًا أكبر من آيات الإنجيل .. كل من يحفظ آيتين ينال بطاقة زرقاء .. عشر بطاقات زرقاء تتيح لك الحصول على بطاقة حمراء .. عشر بطاقات حمراء تتيح لك بطاقة صفراء .. عشر بطاقات صفراء معناها الحصول على نسخة أنيقة مجلدة بعناية من الإنجيل ..

كان معنى هذا أن الحصول على هذه الجائزة يحتاج إلى حفظ ألفى آية من الإنجيل ، وهو ما لم ينجح فيه سوى (مارى) وصبى من أصل ألمانى ..

لكن (توم) فى هذا الصباح .. كان يملك خطة محكمة ..

وقبل أن تبدأ المدرسة ، راح يجرى بعض المقايضات مع الصبية :

ـ « هل تعطينى بطاقة زرقاء مقابل شص صنارة ؟! »

ـ « هل لديك بطاقة صفراء ، مقابل قرادة حية ؟ »

وراح الصبية بسذاجة يقبلون هذه العروض السخية ، دون أن يفكروا لحظة فى مغزى هذه المبادلات ..

وبدأ درس الأحد ، وتراص الصبية فى مقاعدهم .. بينما جاء المرشد المستر (والترز) ، وهو رجل أمين مهيب الطلعة لكن (مارك توين) لا يتركه فى حاله كالعادة ، فيقول إن (ياقته صلبة تصل لأذنيه ، مما يرغمه إلى النظر للأمام دومًا ، والدوران بجسده كلما التفت إلى شخص ما ، ثم إن مقدم حذائه مقوس لأعلى حسب قواعد الأناقة فى ذلك العصر) ..

لقد راح يلقى موعظته ، وهو يحاول تهدئة الضجة الناجمة عن المشاحنات بين الصبية ..

لكن مدرسة الأحد اليوم تختلف ..

هناك ضيف فوق العادة ، هو القاضى (تاتشر) ، أبو (بيكى) شخصيًا .. وربما حمو (توم) فيما بعد لو سارت الأمور كما لن تسير أبدًا ..

حقًا لم يصدق جلّ التلاميذ أنهم يرون رأى العين

رجلاً بهذه الفخامة والهيبة ، وحبسوا أنفاسهم .. تمنى كثير منهم أن يزأر كما يفعل فى المحكمة ، لكنهم عدلوا عن هذا خوفًا .. إنه رجل مهيب عظيم كثير الأسفار .. لقد رأى العالم (والعالم بالنسبة لهؤلاء الأطفال هو المدينة التى تبعد عشرة كيلومترات) ، وباختصار هو إنسان يجل عن الوصف ..

راح المشرفون يركضون هنا وهناك ، وتسربت المشرفات بين صفوف الأطفال يوجهن لهم الكلمات خلسة .. وبالأخص كانت هناك حالة حذر شديدة من (توم) .. إنه كفيل بإفساد كل شىء ..

كان المستر (والترز) مستعدًا لدفع أى ثمن مقابل أن يجد الصبى الألمانى الذى فاز بعشر بطاقات صفراء ..

وفى هذه اللحظة ظهر (توم) حاملاً تسع بطاقات صفراء وتسعًا حمراء وعشرًا زرقاء !

وارتجف المستر (والترز) وفكّر :

- « مستحيل ! عقل هذا الصبى عاجز عن حفظ ثلاث آيات من الإنجيل .. قد يطير النعام وقد يبيض الفيل ،

لكن (توم) هذا لن يستطيع حفظ ألفى آية ! ثمة سرّ فى الموضوع ! »

السرّ كان أصحاب (توم) يعرفونه جيدًا ..

والآن عرفوا مدى سذاجتهم وحمقهم ..

وهو ذا (توم) يتألق كنجم .. يلتمع كمياه نهر فى الشمس .. يتقدم فى مهابة ليصافح سعادة القاضى المحترم ..

وكل هذا أمام عينى (عبير) الفخور .. (عبير) التى لا تعرف شيئًا عن حيل (توم) وأساليبه ..

★ ★ ★

وفى وقار جدير بقاضٍ ربّت الرجل على رأس الصبى الذكى ، وابتسم :

- « يا لك من رجل لطيف .. ما اسمك ؟ »

تلعثم الصبى ، وأحس أنه موشك على الإغماء :

- « (تـ .. توم) !

- « أظن أن هذا ليس اسمك كاملاً .. إن اسمك هو ؟ »

- « (تـ .. توماس صوير) .. »

ابتسم القاضى فى وقار وجلال ، وقال :

ـ « أنت لن تشعر بأسف على هذا الجهد الجهيد .. إن المعرفة شىء لا يقدر بمال ، وهى التى تصوغ عظماء الرجال .. والآن يا (توم) أنت لن تبخل علينا بمعرفة تعلمتها .. إنك تعرف أسماء الحواريين ، فهلا ذكرت لنا اسمَىْ أول اثنين منهما ؟ »

هنا بدت نظرة الغباء على وجه (توم) ، وأحس مستر (والترز) بأن قلبه قد كف عن العمل للأبد .. ليت الأرض تنشق وتبلعنا .. إن (توم) ـ ببساطة ـ لا يستطيع الإجابة عن سؤال كهذا ..

قال (والترز) مرغمًا على الكلام :

ـ « هلم يا (توم) .. أنت لن تتركنا ننتظر .. »

أخيرًا تكلم (توم) :

ـ « (داود) و (جوليات) ! »

وهى إجابة رائعة .. لكن المشكلة هى أنها لا علاقة لها بالموضوع البتة ..

وكانت الكارثة ..

* * *

٦ ـ دعنا نبتعد ..

كانت الأمور تسوء باستمرار بالنسبة لـ (توم) ..

فهو لم ينس قط هذه المهانة التى لاقاها أمام أبى (بيكى) ، باعتباره نصابًا أفاقًا .. أما عن وضعه فى المدرسة فيزداد سوءًا باضطراد ..

* * *

فى الصباح شعر بأنه غير راغب فى الذهاب إلى المدرسة ..

هذا شعور طبيعى ينتاب كل تلميذ أحيانًا ، لكنه ينتاب (توم) دائمًا ، وللمرة الأولى شعر بأنه يفضل البقاء فى الفراش على رؤية (بيكى) ..

إنه يتمنى لو وجد مرضًا ما فى نفسه .. راح ينقب عن مرض صالح فلم يجد .. ثمة آلام مغص خفيفة قد يستطيع بشىء من التركيز أن يزيد منها .. لكن بعد قليل تلاشى الألم تمامًا ..

الأسنان ؟ لا .. لا ! إن العمة (بولى) تعالج الأسنان ببراعة .. إصبع قدمه المتقرح ؟ لم لا ..

بدأ يئن .. ويئن .. لكن (سيدنى) الصغير النائم معه فى الحجرة لم يسمع ..

زاد (توم) من صوت أنينه .. والآن فقط أدرك أنه يتألم حقًا لا تمثيلاً .. راح يهز (سيدنى) بقدمه فأفاق هذا مذعورًا ..

- « (سيدنى) ! (سيدنىىىى !) ..

نهض (سيدنى) ووثب ليتفحص جسد المعذب الصغير ..

- « ماذا بك يا (توم) ؟ »

- « إننى موشك على الموت .. إننى أتألم ! »

فى لهفة صاح (سيدنى) :

- « لا تخف يا (توم) ! لن تموت ! دعنى أنادِ العمة (بولى) .. »

- « فات الأوان .. فات الأوان ! قل لها إننى

سامحتها .. وسامحت الجميع .. قل لها إننى .. آىىىى !! »

هنا هرع الغلام طيب القلب مولولاً لينادى العمة ..

جاءت هذه مذعورة ، وقد صدقت التمثيلية أولاً ، ثم بشىء من التدقيق أدركت أن كل هذا تمثيل بارع فحسب ..

- « هيا .. انهض يا غلام ! »

هنا أيضًا كف (توم) عن الأنين .. وغمغم :

- «لقد كان ألمًا لا يطاق .. ألمًا أنسانى ألم أسنانى ! »

وكانت هذه هى زلة اللسان ، التى ما كان لها أن تحدث .. وعلى الفور أرغمته العمة على فتح فيه .. حقًا كان هناك شىء ملخلخ هناك ..

- « هات الخيط وقطعة فحم مشتعلة يا (سيدنى) ! »

صاح (توم) محتجًا وهو يحاول الفرار :

- « أرجوك يا عمتى لا تخلعيها ! هذا قد يمنعنى من الذهاب للمدرسة ! »



جاءت هذه مذعورة ، وقد صدقت التمثيلية أولاً ، ثم بشىء من التدقيق أدركت أن كل هذا تمثيل بارع فحسب ..

- « لن يمنعك ! »

وعلى الفور بدأت ممارسة طب الأسنان بقواعد قرية (هانيبال) ..

أولاً : ربطت الخيط إلى السنّ ، ثم ربطت الطرف الآخر إلى عامود السرير ، بحيث صار الخيط مشدودًا .. وفجأة قربت قطعة الفحم من وجه (توم) فتراجع للوراء ، وعلى الفور سقطت السنّ متدلية من طرف الخيط ..

* * *

صار (توم) نجم المدرسة لهذا اليوم ، لأن فجوة السن فى فمه جعلت منه أستاذًا بارعًا فى البصق .. وكان يبصق بطريقة جعلت الصبية جميعًا يغبطونه !

جاءت (بيكى) / (عبير) لتهنئه على أسلوبه المتميز فى البصاق ، ثم همست وهى تمشى إلى جواره :

- « إن أبى لا يطيقك .. ولو عرف أننى أتكلم معك لقطع رقبتى ! »

والحقيقة هى أن (توم) صار منبوذًا آخر .. ليس إلى درجة (هاكلبرى فان) الذى كانت الأمهات يمقتن حروف اسمه ، لكنه صار خطرًا داهمًا على تربية أى طفل ..

قال لها (توم) :

ـ « (بيكى) .. إن جلّ ما أصبو إليه هو أن يأسف الناس من أجلى ، لأنهم لم يحبونى حين كان هذا بوسعهم .. آه لو كان بوسع المرء أن يموت بعض الوقت ! »

التمعت عيناها نشوة ..

فمن منا لم يفكر فى حلم الموت المؤقت هذا ؟ كانت (عبير) تقضى الساعات تتخيل نفسها على فراش الموت ، بينما يحتشد كل معذبيها حولها .. كل مدرسيها وأخوها وعمها .. كلهم يتوسلون إليها ألا تموت ، وأن تسامحهم .. لكنها تدير وجهها للجدار وتلفظ أنفاسها دون كلمة واحدة ..

يا للروعة ! لسوف يقتلهم الندم بعد فوات الأوان ،

ولسوف يعتصر الأسى قلوبهم على الجوهرة التى امتلكوها ، فتركوها تسقط فى الوحل ..

كانت ككل الناس تعتقد أنها مظلومة ، وأنها لم تنل حقها فى الحياة ، وكانت حين تكتب لا تخط إلا عبارات مسطحة ، توحى بالعذاب والمعاناة على غرار (أنا ناقوس يدق فى عالم النسيان) و (فى قلبى جرح لا يندمل) ..

لهذا .. بدت لها فكرة الموت أو الاختفاء رائعة بحقّ ..

* * *

وبعد ساعات الدراسة التقى المعذبون الثلاثة :

(توم) و (بيكى) و (جوهاربر) ..

كل منهم كان يحمل قروح المجتمع الذى لم يفهمه قط ..

(توم) هو ما نعرفه عنه .. و (بيكى) ضربها أبوها لأنها تلعب مع (توم) ، أما (جوهاربر) فقد ضربته أمه ؛ لأنه شرب قشدة اللبن كلها ، وقال (جو) إنه يأمل ألا تندم أمه على أنها عاملته بهذه القسوة ؛ حين

تدرك أنها قذفته إلى خضم الحياة ليتعذب ويتحطم قلبه ويموت !

وانفجر الثلاثة دامعين ..

كان (توم) قد قرر أن يغدو قرصانًا وأن يثير الرعب فى البحار ، ثم يعود يومًا إلى (هانيبال) ليوقف معذبيه النادمين الباكين جنبًا إلى جنب .. ويعفو عنهم !

لكن (جو) كان راغبًا فى أن يصير ناسكًا فى كهف سحيق ، يموت من شدّة البرد والحرمان والجوع ..

قالت (عبير) :

ـ « أما أنا فأفضل أن أموت بداء صدرى ، وأن أسعل كثيرًا جدًا وأتعذب ! »

هنا قال (توم) وقد حزم أمره :

ـ « الفرار ! لا سبيل إلا الفرار .. »

★ ★ ★

إلى أين ؟

إن جزيرة (جاكسوب) ـ الواقعة على بعد ثلاثة

أميال ـ وسط نهر (المسيسبى) ـ تصلح بالتأكيد .. إنها مغطاة بالغابات ، ويمكن أن يضموا إليهم (هاكلبرى فان) الشريد ، فلا فارق لديه بين مكان وآخر ..

الموعد ؟

منتصف الليل طبعًا .. سيلتقى الجميع هنا ، وينطلقون إلى مأواهم الجديد .. ولكن بعد أن يتزود كل منهم ببعض المؤن من داره ..

★ ★ ★

منتصف الليل ..

يقف (توم) على المرتفع يرمق مكان اللقاء ..

كان يخشى ألا تجىء (بيكى) ، فلئن كان المجىء عسيرًا على الغلمان فهو بالنسبة لفتاة مستحيل .. لكن ها هو ذا يتبين (عبير) بثيابها الأنيقة المميزة آتية ، تحمل كيسًا من الخبز واللحم المقددين ..

(هاك) قادم .. ثم (جو) ..

وأخيرًا يتجهون إلى طوف خشبى مربوط إلى جانب النهر .. قال (توم) وهو يتحسس خنجرًا لا وجود له :

- « لو تكلم أحد أصحاب الطوف ، فاغرسوا النصال حتى المقابض ، لأن الموتى لا يتكلمون ! »

جلس الأصدقاء الأربعة على الطوف ، فتولى اثنان التجديف على حين وقف (توم) عاقدًا ذراعيه إلى صدره شامخًا ، والهواء يطير خصلات شعره ، وشعر (بيكى) الجالسة عند قدميه ..

وفوق الرءوس تلتمع النجوم ، واضحة كما لم يرها أحد منذ العصر الجليدى وحتى اليوم ..

الطوف ينساب ببطء ، قرب القرية الغافلة ..

لو أنهم يروننا ! لو أنهم يعرفون أننا ذاهبون لحتفنا وعلى ثغورنا ابتسامة مريرة ..

أخيرًا تدنو الجزيرة ..

ويمكنهم بدء الفصل الجديد من حياتهم هناك ..

* * *

ربطوا الطوف إلى الشاطئ ، وبحثوا فى الظلام حتى وجدوا شراعًا يصلح لتغطية طعامهم ..

أشعلوا نارًا والتهموا عشاءً من اللحم ، وأقسموا على أن يبقوا ها هنا أبدًا ..

وقال (هاك) وهو يلتهم قطعة لحم أخرى :

- « إننى لم آكل ما يكفينى .. لهذا أحسب هذه الجزيرة جنتى ، وكفانى أن أحدًا لن يجىء ها هنا ليطاردنى .. »

قال (توم) وهو يأمل فى الظفر بإعجاب (بيكى) :

- « الآن نضع خطتنا للاستيلاء على السفن وحرقها ! »

* * *

٧ ـ غـــريق ؟!

ـ « ما الذى يفعله القراصنة كواجب ؟ »

ـ « أوه .. لا شىء سوى العربدة ، يستولون على السفن ، ويسرقون كنوزها ويدفنونها فى جزر مخيفة ، ثم يقتلون كل من على ظهر السفن .. »

ـ « والنساء ؟ »

ـ « لا يقتلون النساء أبدًا .. لأن القراصنة نبلاء غاية النبل ، والنساء يكن جميلات دائمًا ! »

ـ « وماذا عن ثياب القراصنة ؟ »

ـ « أوه .. إنهم يرتدون ثيابًا فاخرة مزدانة بالماس والذهب .. »

وتأمل (هاك) ثيابه فى بؤس .. القبعة المهشمة على رأسه ، والسروال ذا الحمالات الذى يتمسك بحمالة واحدة لا أكثر ، بينما يتدلى طرفا السروال ليكنسا الأرض من الغبار .. وقدماه متسختان دائمًا ..

قال فى همّ :

ـ « سأحاول أن أبدأ القرصنة بثياب عادية ، ثم أتأنق بعدما نصير أثرياء ! »

* * *

نام الجميع ، لكن (بيكى) كانت تبكى فى صمت :

أولاً : هى كانت خائفة من الظلام ، وقد بدا لها أن هؤلاء الثلاثة لا يشعرون به على الإطلاق ..

ثانيًا : هى كانت تشعر بتأنيب الضمير .. فالهرب من دارها لم يبدُ لها فكرة محببة إلى هذا الحدّ .. كما أنها استعارت بعض الطعام من مطبخ أسرتها ، والاستعارة تعبير مهذب للدلالة على السرقة ..

لقد جلب الصبية بدورهم بعض الحلوى والخبز من بيوتهم .. لكن السرقة تتعلق عامة بالأشياء الثمينة كاللحم لا الحلوى ، وهى قد سرقت لحمًا لذا هى تستحق الجلد ..

وخطر لها أن هذه كلها مغامرة من مغامرات (فانتازيا) ؛ لكنها قالت لنفسها إنها تعيشها ، بكل تفاصيلها ، فلا مهادنة هنالك ..

إن من يسرق فى (فانتازيا) يسرق فى أى مكان آخر ..

ولا تدرى متى غلبها الهم فنامت ..

لكنها راحت تأمل أن يكون النهار أكثر إبهاجًا ..

* * *

وكان النهار أكثر إبهاجًا بالفعل ..

صحت على الندى يغمر الكلأ ، وهواء نقى نظيف يتسابق إلى رئتيها ، فتنشقه فى جشع ..

اليوم لن تكون هناك مدرسة ، ولا مدرّس ، ولا غسيل وجه بالماء البارد ..

الفراش يحطّ على أوراق الشجر والزهور ، فيما يتصايح طائر فى مكان فيردّ عليه آخر ، ويمارس نقار الخشب عمله فى نشاط ، ودودة تزحف ببطء فوق غصن شجرة بادئة يومها فى كسل ..

صحا الصبية جميعًا ، وهرعوا إلى النهر ، وإنهم ليصخبون صخبًا مريعًا فى مرحهم ، ولا يكفون عن سكب المياه على بعضهم ، ومحاولة إغراق بعضهم

للبعض .. ولم تطفىء حماستهم حقيقة أن الطوف قد رحل !

فى هذا الوقت انهمكت (عبير) باسمة فى إعداد الإفطار لهم ، ثم راحت معهم إلى النهر تمارس حظها فى صيد السمك ..

فى الحقيقة ؛ لم تكن هذه الجزيرة فى حجم (أوستراليا) .. بل هى أبعد الأشياء عن ذلك .. إن هى إلا مساحة ضيقة تقارب ثلاثة أرباع الميل المربع ، ولم تبعد عن الساحل سوى بضعة أمتار .. لكنهم ـ كالعادة ـ تصوروا أنهم يرتادون الأرض التى غفل عنها الزمن ..

قضوا اليوم ما بين استكشاف للجزيرة ، ووثب فوق كتل الخشب العطنة ، وصيد سمك ، وركض ..

وفى المساء جلسوا يتسامرون حول النيران ..

الحق أنهم بدءوا يتساءلون : هل هذا كل شىء ؟ واستشعروا بعض السأم من هذه الحياة ، التى استنفدت أسرارها فى يوم واحد ..

كان هناك .. كذلك شعور ممض .. شعور كاسح

بالحنين إلى ديارهم .. لكن العهد الصامت الذى أبرموه منع كلاً منهم من التذمر أو إعلان هذا .. خجلوا من إعلانه ..

تبًا لمن يقول هذا أول مرة !

كان هذا هو العهد .. ولقد برّوا به حقًا ..

★ ★ ★

بوم ! بوم !

لم يدركوا وجود هذا الصوت إلا متأخرًا ، وفهموا أنهم كانوا يسمعونه من فترة طويلة دون أن يتنبهوا ..

ـ « ما هذا ؟ »

ـ « كأنه الرعد ..... »

ـ « بل كأنه مدفع ينطلق .. »

وهرعوا إلى الشاطئ الذى يمكنهم منه تبين القرية .. كان الظلام قد أرخى سدوله ، لكنهم يرون زحامًا من القوارب فى النهر ، ويرون الكثير من القوم ، ويرون سحابة دخان تنبعث من طوف يتأرجح هناك ..

لقد غرق أحدهم فى القرية ..

وكان البحث عن غريق فى القرية له أسلوبان مؤكدان :

الأول : إطلاق المدفع على الماء ، ليعين الجثة على الخروج ..

الثانى : ملء بضعة أرْغفة من الخبز بالزئبق ، وإلقاؤها فى الماء .. الفكرة العلمية هنا هى أن الزئبق يحب جثث الغرقى ، وسرعان ما تحتشد الأرغفة حول جثة الغريق !

تساءلت (عبير) التى كانت تسمع الموضوع لأول مرة :

ـ « ولكن .. كيف يعرف الخبز الجاهل مكان الغريق ؟ »

فى ثقة قال (توم) :

ـ « لا بد من أن تخبريه بشىء معين قبل أن تلقيه فى الماء ! إن الخبز لا يستطيع التصرف وحده دون تعليمات .. ! »

وساد الصمت :

كل منهم يفكّر فى اسم الغريق الذى فقدته القرية ..

لكن (توم) عرفه ببساطة ، وفى فخر قال :

ـ « الغريق يا شباب .. هو نحن !! »

★ ★ ★

لشد ما شعر الأطفال بفخر وحبور !

لقد تحققت أمنياتهم ، وظفروا بالحلم الذى اشتهوه طويلاً .. إن القرية قد وجدت الطوف ، وسرعان ما بدأ الهمّ والغمّ وانهمرت الدموع من أجل الأبرياء الثلاثة .. بل الأربعة إذا ما عددنا (هاكلبرى فان) بريئًا .

الآن تبكى العمة (بولى) ، وتدمع عينا المدرس ، ويرتجف القاضى (تاتشر) ، وتولول أم (جو) ! وكلهم يودّ لو عاد الملائكة الصغار مرة أخرى !

وجلس الصبية حول النار شاردين يصطلون ، وأعدّت لهم (عبير) بعض السمك المشوى ..

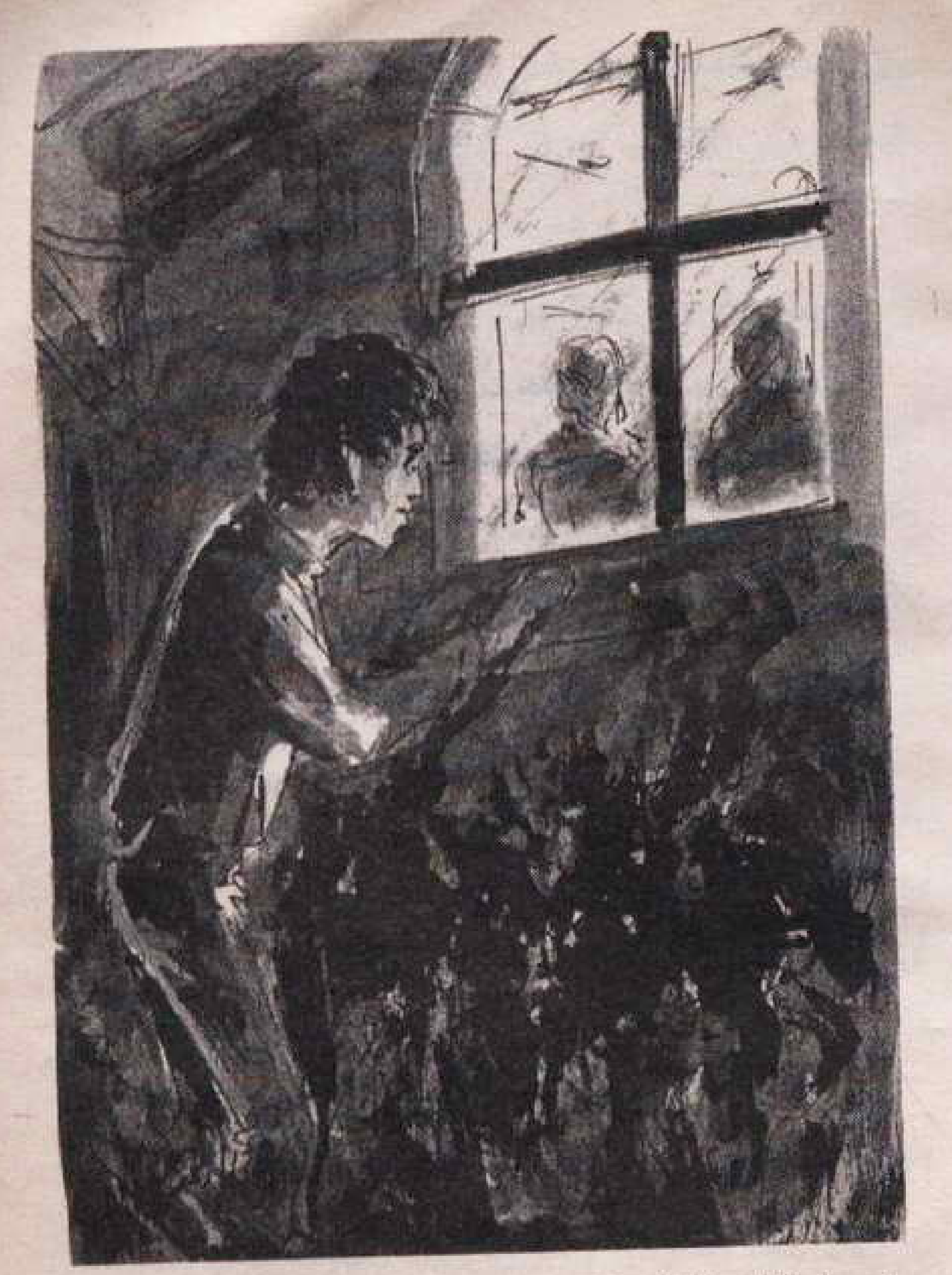
الحق أن الحنين إلى الوطن ، ومعرفة ما يفعله الأهل

ظل يتلاعب فى النفوس ، ولكن كلاً منهم كتم مشاعره .. إن حياة القرصنة طويلة شاقة .. فكيف يكون الحال لو سئموها بعد يوم واحد ؟

وبعد قليل نام الجميع ..

ولم يعرفوا أن (توم) كانت لديه مشاريع معينة لهذه الليلة ..

★ ★ ★



فيتسلل كالثعبان إلى الداخل .. ثمة شمعة مضاءة .. والنافذة الصغيرة المطلة على غرفة نوم العمة تسمح له باختلاس النظر ..

٨ ـ دعنا نعد ..

تحت أستار الظلام ينطلق (توم) عائدًا إلى القرية ..

يسبح كما هو جدير بقرصان شجاع له قلب أسد ، متجهًا إلى الشاطئ الذى خلا من القوم ، بعد ما قنطوا من العثور عليه ..

ها هو ذا يصل لداره ، فيتسلل كالثعبان إلى الداخل ..

ثمة شمعة مضاءة .. والنافذة الصغيرة المطلة على غرفة نوم العمة تسمح له باختلاس النظر ؛ لمعرفة سرّ الاجتماع الصغير المنعقد ..

نعم .. كان هناك اجتماع ما بين العمة و (مارى) وأم (جو) ..

وأصاخ السمع ليعرف ما يقال ..

* * *

تقول العمة (بولى) :

- « لم يكن (توم) شريرًا .. كان شقيًا طائشًا كأى طفل .. »

وتقول أم (جوهاربر) :

- « تصورى ! لقد ضربت (جو) أمس ؛ لأنه شرب القشدة ! فليرحمنى الله على ما عاملته به من قسوة ! لقد كان ملاكًا ، وأنا كنت سأتخلص من القشدة على كل حال ! »

ثم انفجرت فى البكاء ، وصاحت من بين عبراتها :

- « لو أن الزمن عاد بى لاحتضنته ، وباركته على ما فعل .. لكننا حمقى لانعرف متى ولاكيف سنفقد من نحب ! »

قالت العمة بدورها :

- « منذ أسبوع أمسك (توم) القطة ، وسكب دواءه المرّ فى حلقها ، وحين لمته على ذلك قال لى : إن القطة لا عمة لها ! وكان يعنى أن الدواء الذى يؤلم القطة لابد أن يؤلم طفلاً مثله .. لقد قرصت أذنه بعنف

وقتها ، ويَحى من عجوز قاسية القلب ! فلم يسمع البائس منى إلا تأنيبًا ولومًا .. »

وانفجرت فى بكاء حارّ ..

★ ★ ★

كان (توم) هنا قد وصل لذروة التأثر ..

ولم يكن مصدر التأثر إلا شعوره بالأسى والشفقة على نفسه ، وعلى القسوة التى عُومِلَ بها ، حتى كاد ينفجر باكيًا ..

تماسك وراح يصغى لكلمات (مارى) :

- « لقد أدرك القوم حين وجدوا الطوف أن الأطفال غرقوا .. وأن البحث عن الجثث يعتبر جهدًا لا طائل من ورائه .. لهذا انتهت عمليات البحث .. وقد اقترح القس أن تعقد صلاة الجنازة لهم يوم الأحد القادم ، لأن معنى هذا مرور أربعة أيام على اختفائهم ..

انتحبت العمة والأم لدى سماع هذا ، بينما ارتجف (توم) رهبة ..

وبعد قليل انصرفت (مارى) وأم (جوهاربر) ..

وبقيت العمة وحدها صامتة .. إن هى إلا بضع كلمات تردّدها من آن لآخر تعبّر عن شوقها وحبها الشديد للفقيد ..

وأخيرًا رقدت فى فراشها ، وراحت تتنهد بقوة ..

سكنت حركتها ، واستطاع أن يدنو منها ..

بحذر انحنى ولثمها على جبينها العجوز المنهك ، ثم تسلل بهدوء مغادرًا الغرفة ..

★ ★ ★

وكان الليل يلفظ آخر أنفاسه ، حين بلغ (توم) معسكرهم على الجزيرة ، وكان الصبية نائمين .. وكذلك (بيكى) ..

جلس لاهثًا يرمقهم شاعرًا بمدى بطولته وشجاعته ..

إن لديه الكثير مما يحكيه فى الصباح ، أما الآن فالنوم هو خير ما يستطيع عمله ..

ونام نومًا هانئًا بلا أحلام ..

★ ★ ★

حين صحا كان الصبية يتحدثون عن بيض السلاحف البحرية المدفون فى الرمال .. وكان العدد يتراوح من خمسين إلى ستين بيضة فى كل حفرة ، وبيض السلحفاة البحرية صغير ، أصغر حجمًا من (عين الجمل) ، لكنه شهى المذاق للغاية ..

دنا منهم (توم) وأخبرهم بكل شىء سمعه أمس ، وبالطبع أضاف كثيرًا من التوابل إلى مغامرة أمس ، حتى بدت كأنها عمل خارق من أعمال الشجاعة ، لا يجسر عليه أحد ..

لم يصدق الأطفال الثلاثة كل هذا .. إنهم قد صاروا غرقى ، وكل القرية تبكى عليهم حزنًا ، بل ـ الأروع ـ ستقام صلاة جنازتهم بعد أيام !

راحوا يركضون فوق الرمال ويتواثبون ، ثم يركضون فى الماء الضحل ويتقاذفون برذاذ المياه .. وسرعان ما تغسل المياه الرمال البيضاء الدافئة عن أجسادهم ، فيعودون للشاطئ ليتزودوا بمزيد منها ..

وعندما جاءت الظهيرة صنعوا سيركًا صغيرًا ، وراحوا يمارسون فيه ألعابهم البهلوانية ..

جاء العصر ، وبدا أنهم استنفدوا كل ما لديهم من حيل وألعاب ، وارتجفت (عبير) وهى ترمق النهر ..

كلا .. ستقاوم هذا الحنين .. لن تكون أول من يضعف .. وقتها سيقول الجميع .. هذا هو ديدن الفتيات ..

إن علامات الضعف موجودة .. على كل حال ، ويمكنها أن تجدها بسهولة لدى (جو هاربر) .. سيكون هو أول المهزومين ، وقتها سيكون حلم الجميع العلنى هو العودة ..

كان (توم) يحاول جاهدًا أن يثير حماس الأصدقاء للبقاء هاهنا أكثر ، فكان يخبرهم عن كنوز القراصنة التى تعجّ بها الجزيرة ، لكن هذا لم يثر حماستهم ..

* * *

وكما توقعت (عبير) كان (جو) أول من جأر بالشكوى :

- « فلنعد لبيوتنا ! كفانا هذا ! »

فى خيبة أمل صاح (توم) :

- « البيت معناه أنك لن تستطيع السباحة .. »

- « أنا لا أهتم بالسباحة .. إنكم فقط ترغموننى على هذا .. »

هنا قرّر (توم) أن يستخدم المادة (ب) من كتاب (استثارة حماس الأطفال) غير المكتوب :

- « اذهب يا (جو) .. فأنت مجرّد طفل يشتاق لأمه ! »

لكن (جو) لم ينخدع ، ولم ينكر ذلك لحظة :

- « نعم مشتاق لأمى .. أما أنت فلا تفهم هذا ؛ لأنه لا أم لك ! »

وفى إصرار قلما شاهده (توم) ، رآه الأخير يرتدى ثيابه غير مكترث بإلحاح أحد ..

وأثار رعب (توم) كذلك أن (هاك) كان صامتًا .. كان يرمق (جو) فى حسد ووله .. فقرر أن يحمسه قليلاً :

- « لقد قرّر الطفل العودة لأمه .. ليكن ! أما نحن فقرصانان شجاعان وسنبقى هنا أبدًا مع (بيكى) ! »

لكن (هاك) كان صامتًا ، وصمته لا يبشر بخير ..

بعد هنيهة قال متحاشيًا نظرات (توم) :

- « الحق أن الوحدة هنا لا تطاق يا (توم) .. دعنا نلحق بـ (جو) ! »

صاح (توم) فى عصبية :

- « وأنت أيضًا ؟ يا لك من طفل ! حسن ! يمكنك أن ترحل .. يمكنكم الرحيل جميعًا .. إن هذه الجزيرة تناسب (توم صوير) وتناسب (بيكى) .. ولسوف أعود لكم يومًا ما ، وقد صرت من زعماء الهنود الحمر .. سأدخل القرية مرتديًا كامل ثيابى ، ولسوف أطلق صرخة الحرب فيرتجف أعدائى ذعرًا ، ويندم أمثالكما ! »

دون كلمة أخرى ارتدى (هاك) ثيابه ، وابتعد ..

فقط قال دون أن ينظر للوراء :

- « لسوف تلحق بنا سريعًا يا (توم) ! »

- « لن يحدث ! »

دنت (عبير) / (بيكى) من (توم) ، واعتصرت ذراعه بيدها .. ومرتجفة همست وهى تنظر للأفق :

- « فلنعد يا (توم) .. معهما حق ! »

نظر لها معاتبًا ، ثم غمغم :

- « أنت لا تفهمين .. هل يمكنك العودة بعد ما كان ؟

ماذا سيفعل بك القاضى العظيم (تاتشر) لدى العودة ؟ لن يجلب لك الحلوى بكل تأكيد !

ارتجفت للفكرة .. إنه نفس شعور جند (طارق بن زياد) حين أحرق سفنهم ، وأخبرهم أنه لا مناص من الاستمرار ، فقد انقطعت سبل العودة ..

همست وأسنانها تصطك :

- « ماذا سيحدث لنا ؟ »

★ ★ ★

ليس ما ينتظرهما بهيجًا بالتأكيد ..

فما إن انصرف (هاك) حتى تلونَ الهواء بلون رمادى منذر بالخطر ، وشعرا بثقل أنفاسهما مع شىء من التوتر .. كأنما فى الجو كهربية استاتيكية تفعم روحيهما اضطرابًا ..

وبالفعل ومض نور لحظى ثم تلاشى .. وبعد ثوان ومض بشكل أقوى .. ثم جلجل هزيم الرعد كأنها الطبول ترتطم فى أجواز السحب ، وارتجف الطفلان هلعًا ..

لم يعد الأمر نذير عاصفة ..

إنها بالفعل عاصفة !

★ ★ ★

٩ـ فرار إلى فرار..

الغيث ! الغيث !

لكم تختلف الشخصية الغربية عن العربية فى حبها للمطر والبرد .. إن العربى اشتق اسم (الغيث) من لفظة (الغوث) ، وحين يستريح يشعر بأن شيئًا (أثلج صدره) ؛ بينما لا يحب الغربى المطر إلى هذا الحدّ ، بسبب اختلاف طبيعة الطقس فى بلادهم .. إن المطر هناك كارثة حقيقية كاسحة جارفة ..

لشد ما ارتجف الطفلان هلعًا ، وهما يركضان بحثًا عن مأوى فى جزيرة لم تصمم لذلك أصلاً ..

★ ★ ★

يدوى هزيم الرعد .. ثم تبرق السماء معلنة قدوم رعد آخر ..

وانهمر السيل مدرارًا حتى ليبلل عظامهما نفسها .

حتى الشراع الذى داروا به الموت طار مبتعدًا إلى النهر ، وراحا يرتجفان ويحاولان التماسك ..

تُرى إلى أى حدّ تستطيع الأشجار التماسك ، وهى تميل بجذوعها مهددة بأن تقتلع ؟

تُرى كيف ـ وبأية معجزة ـ يمكن إشعال نار يصطليان بها ؟

يا لها من ليلة ! يالها من ليلة !

★ ★ ★

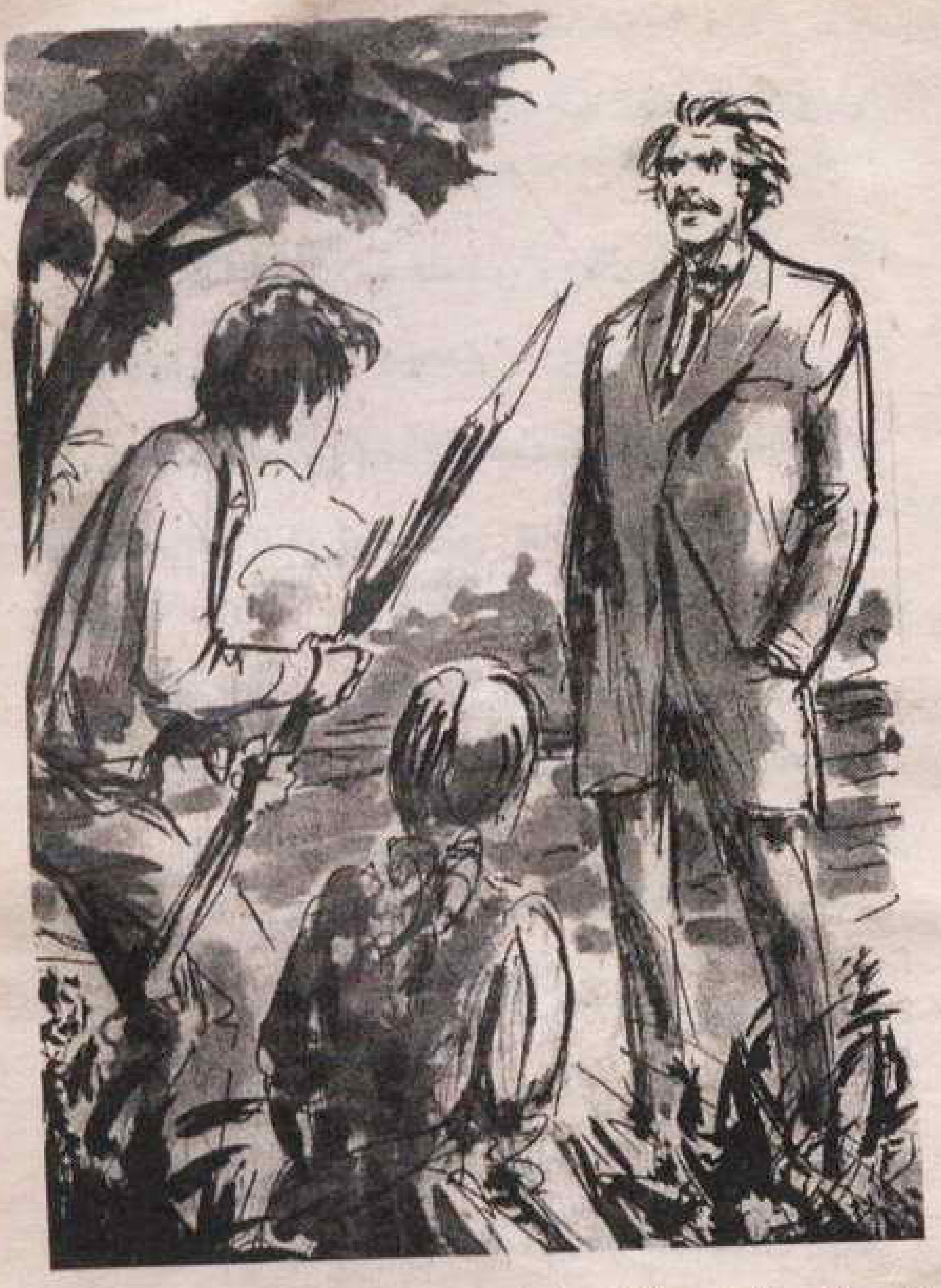
وفى الصباح هدأت العاصفة ، وعاد السلام والصمت إلى الجزيرة .. صحيح أن أشجارًا كثيرة قد هوت ، وصحيح أن المعسكر قد صار تاريخًا ، لكنهما ـ على الأقل ـ ما زالا حيين ..

همس (تُوم) وهو يفتش تحت كتلة خشبية ساقطة :

ـ « النار ! هل يمكن أن ؟ » .

وبالفعل .. استطاع بمعجزة أن يجد نارًا خافتة حية تحت الكتلة ، حيث كانت نار معسكرهم .

بحث و (عبير) عن بعض قطع الخشب الجافة ، واستطاعا أن يعيدا الحياة إلى الزهرة الحمراء .. الآن



وثب (توم) مذعورًا فالتقط غصن شجرة مدببًا ، وصوبه نحو القادم ، وصاح : « قف مكانك ! من أنت ؟ » ..

فقط صار بوسعهما أن يجففا ثيابهما ، وأن يظفرا ببعض الدفء ..

وقالت (عبير) وهى تحاول شىّ قطعة لحم :

ـ « لن نستطيع البقاء هنا أبدًا يا (توم) » ..

ـ « هراء ! سنستطيع » ..

كانا مرغمين على البقاء جالسَين ، لأن الوحل كان فى كل مكان ، وما من مكان جاف يمكن النوم فيه ..

لكن الطعام والدفء أشعرهما ببعض التحسن ..

* * *

ورأته (عبير) قادمًا من جهة البحر ، وقد دسّ يديه فى جيبى سرواله .. وشعره الأشيب المنكوش يتطاير فى الهواء البارد ..

وشمّت رائحة التبغ القوية ..

وثب (توم) مذعورًا فالتقط غصن شجرة مدببًا ، وصوبه نحو القادم ، وصاح :

ـ « قف مكانك ! من أنت ؟ »

وضعت (عبير) يدها على ذراعه مهدئة :

- « مهلاً يا (توم) .. مهلاً ! إنه السيد (صمويل لانجهورن كليمنز) ! »

لم يثر هذا أية علامة اطمئنان ، وقال :

- « وما معنى هذا ؟ »

- « (مارك توين) .. إنه صاحب هذا العالم ذاته ! »

نفض (مارك توين) بعض رماد السيجار ، وقال في هدوء :

- « بل وأكثر من هذا يا (توم) .. أنت هو أنا في طفولتي ! كل مغامرات (توم صوير) هي أحداث طفولتي ، وما (هاكلبري فان) إلا (توم بلانكشيت) ابن سِكير قريتنا .. ومثلك نشأت يتيمًا فقيرًا ، لكني أحوي شيطانًا صغيرًا تحت جلدي ! »

- « ومن أين جئت ؟ »

ابتسم (مارك توين) من وراء شاربه الكثّ .

- « كله إلا هذا .. من حق مؤلف القصة أن يزور

أبطاله متى شاء ، ويتنقل في الأماكن بحريته .. لا أحد يطلب مالاً من صاحب الفندق إذا أمضى ليلته في أية غرفة أو جناح من فندقه .. »

قالت (عبير) في كياسة :

- « هلا تفضلت بالجلوس يا مستر (توين) ؟ »

- « بكل سرور يا صغيرتي ، وإن كنت لا أجد موضعًا مناسبًا للجلوس ..

إن هذه البذلة البيضاء مشكلة كما تعلمين .. »

وبعد لحظة تفكير أخرج منديلاً عملاقًا ، وفرشه على الأرض المبتلة ثم جلس ببساطة فوقه ..

قال (توم) وهو يسترخي جوار النار :

- « معك منديل ؟ أنا لم أحظ قط بمنديل ، لهذا اعتبرت المناديل علامة على الغطرسة ! »

- « أنا قد صرت ثريًا يا (توم) .. لن أظلّ كما أنا للأبد .. لقد صرت أهم كُتّاب الولايات المتحدة ، وهناك دول عديدة تطلبني في جلسات قراءة .. أي أن الجمهور

يدفع مالاً لمجرد أن يدخل مسرحًا كبيرًا ، أجلس أنا على منصته وأقرأ كتبى الشهيرة ! »

ثم أضاف فى مرارة :

- « لكن لا أنكر أننى مت فقيرًا مدينًا .. يبدو أن أمثالى لم يخلقوا للثراء ، وقد أضعت مالى فى مشاريع لا طائل من ورائها .. واختراعات خيالية اشتريتها .. »

صاح (توم) فى مرارة بدوره (وإن اختلفت الأسباب) :

- « إذن لم تصر قرصانًا ولا لصًا عظيمًا ! »

- « للأسف لا يا بنى .. لكن - من ناحية السفر - أنا قد رأيت العالم ، ولم أكف عن الترحال .. »

وابتسم ابتسامته الساخرة المألوفة :

- « من ناحية القرصنة ؛ لم أصر قرصانًا بعد .. لكنى صرت أكبر مشاغب عرفه العالم ، وسخريتى لاتنتهى من كل ماهو سخيف أو ممل فى الحياة ..

ويقول كثيرون : إن إسكاتى معجزة ..

« الحقيقة يا (توم) أنك أنت مشكلة حياتى ..

« لقد كبرت ونضجت ، لكن الصغير المشاغب (توم سوير) ظل هو المسيطر على شخصيتى .. رافضًا الخضوع لقيود المجتمع ، رافضًا الاستسلام لسلطة الآخرين .. وكانت هذه هى مشكلتى الدائمة ..

« الحقيقة هى أننى كنت دومًا أكتب مقالين : أنشر واحدًا على الملأ ، وأُخفى الثانى فى درجى .. والثانى دائمًا ما يضم آرائى الصريحة الصادقة ، التى لن يبتلعها أحد ..

« فى شبابى كتبت : لقد عملت مخبرًا فى المجلس التشريعى وفى مجلس الشيوخ ، وهكذا تعرفت أصغر العقول التى خلقها الله ، وأكثر النفوس أنانية ، وأشد القلوب جبنًا !

« وفى عام 1861 انضممت إلى الجيش فى أثناء الحرب الأهلية ، وسرعان ما أثارت فكرة الحرب اشمئزازى ، وكتبت أقول : إن تاريخ البشرية هو تاريخ موجز لسفك دماء البشر ..

« وكتبت (دماء الجندى) الذى أقول فيه :

« ربَّ أعنَّا على تمزيق جنودهم بقنابلنا لتصير

أجسادهم شرائح ملوثة بالدماء .. أعنًا على أن تغطى حقولهم الباسمة أشلاء قتلاهم ، ولنغرق قصف المدافع فى طوفان صرخات جرحاهم المتلوين ألمًا .. ولنخرب بيوتهم بأعاصير من نار ، ونحرمهم المأوى ، حتى يهيموا على وجوههم وسط الخراب ، مع أطفالهم الصغار بلا محب ولا صديق !

« وكتبت ذات مرة أقول » :

« إن الفساد لم يعمّ المجتمع .. يوجد فاسد واحد بين خمسين صالحًا .. لكن الفاسدين يتحدون دومًا فيكون لاتحادهم قوة ، تمكنهم من تحقيق أحلامهم ..

« وهكذا كان من الطبيعى أن أطرد من كل صحيفة عملت بها ..

« ومن لحظتها قررت أن أتحول إلى آلة لجمع المال ، وتزوجت ابنة مليونير ، ورحت أكتب لمجرد الكسب ..

« لكن (توم) الصغير الساخر المشاكس ظل حيًا فى داخلى ، ولم يكف قط عن جعل لسانى ينزلق ..

« كتبت ذات مرة أقول :

« الفارق بين الكلب والإنسان ، هو أنك لو التقطت كلبًا جائعًا فأطعمته فلن يعضك أبدًا !

« لقد كانت حياتى كلها صراعًا بين المجتمع وبين (توم صوير) الصغير .. »

★ ★ ★

سألته (عبير) وقد راقت لها كلماته :

- « تقول إنك اشتريت اختراعات فاشلة ؟ أية اختراعات ؟ »

ابتسم فى مرارة ، وبصق فى النار وقال :

- « كل شىء وأى شىء .. لقد خدعنى كل المخترعين بسبب طيبة قلبى ، ربما ما عدا واحدًا لم يستطع خداعى .. »

- « حقًا ؟ ومن هو ذلك الأحمق ؟ »

- « إنه أسكتلندى يدعى (ألكسندر جراهام بل) .. كان يريد أن أشاركه ببعض المال من أجل اختراع ينقل الصوت عبر الأسلاك ! تصوروا هذا السخف ! قلت له إنه يمزح ، وإننى لن أبدد مالى على ضوضاء فى أسلاك ! »

ـ « أنت رفضت المشاركة فى اختراع الهاتف ؟! »

ـ « هذه هى المرة الوحيدة فى حياتى التى تصرفت فيها بحذر .. ولو لم أفعل لصرت ملياردير‌ًا .. »

ثم أطفأ سيجاره ، وقال بعد ما سعل مرتين :

ـ « الآن يجب أن نعالج المأزق الذى أنتما فيه ! »

★ ★ ★

١٠ ـ مكان آخر ..

تساءلت (عبير) وقد عادت لعالم الخيال :

ـ « أى مأزق نحن فيه ؟ إن الأمور على ما يُرام .. »

نهض (مارك توين) وأصلح من ثيابه ، وقال :

ـ « بالعكس .. إن الأمور سيئة حقًا .. والسبب أنت .. لو لم تلحقى بـ (توم) إلى هذه الجزيرة لمضت الأحداث كما رسمتها لها ..

« كان (توم) سيجىء إلى الجزيرة مع رفاقه ، ثم يظهر فى نفس اللحظة التى يتم فيها مأتم دفنه ؛ ليحدث انبهارًا عميقًا ، ويغدو الكل مستعدين للتسامح إزاء فرحة كهذه ..

« أما وقد جعل الحبّ (توم) يبقى هنا ، وجعلك تفرين من آلك ..

أما وقد عاد (هاك) و (جو بورتر) إلى القرية ؛ فلابد أن النار مشتعلة هناك ، والغضب عامّ عليكما ..

« لابد أنهم ينتظرون هدوء العاصفة ؛ كى يأتوا إلى هذه الجزيرة كى يقبضوا عليكما .. وهو ما يحدث الآن بالتأكيد ..

« تخيلى ما سيحلّ بكما من هول ، وأى انتقام ينتظركما .. لن يكون الجلد بالسياط هو جلّ ما سيحدث كما تعلمان ! »

★ ★ ★

فى هذه المرة تقلص وجه (توم) ، وبدا واهنًا ضعيفًا خائر القوى ، عاجزًا عن الاختيار الصائب ..

- « ربّاه ! وماذا نفعل يا مستر (توين) ؟ »

- « اتركانى أفكر .. علىّ البحث عن مخرج آخر .. »

وراح يذرع المكان أمام عينيهما ، وأشعل سيجارًا آخر بحثًا عن إلهام قصصى مناسب ..

فى النهاية توقف ، وقال :

- « لا حلّ سوى لعب دور (روميو) و (جولييت)

إلى النهاية .. سيكون عليكما الهرب إلى مكان آخر .. »

صاحت (عبير) فى رعب موشكة على البكاء :

- « مكان آخر ؟ أين ؟ »

- « حاولى أن تهدئى .. فلم أكن أنا سبب ما حدث .. »

ثم أردف ، وهو يشير إلى الأفق باتجاه لم يتبيناه :

- « هناك جزيرة فى المحيط يمكننى نقلكما إليها ، وهناك تنموان معًا وتمارسان حياة كحياة (روبنسون كروزو) .. »

قالت (عبير) فى شك :

- « لكن هذا يجنح بالقصة إلى شواطئ (البحيرة الزرقاء) ! »

- « لا مفرّ لى الآن سوى الاقتباس من زميلى فى المهنة (ستاكبول) .. هل أنتما موافقان ؟ »

- « ما دام لا مفر سوى هذا .. »

★ ★ ★

فى اللحظة التالية كانا يقفان على شاطئ جزيرة وسط المحيط ، تتعالى الأمواج من حولها ، وتحلق النوارس متصايحة .

كانت هناك بقايا سفينة محطمة .. وكوخ خشبى مصنوع دون براعة ، وهيكل عظمى يرتدى ثياب بحّار ملقى على الرمال ..

قال (مارك توين) وشعره الأشعث يتطاير فى الهواء :

- « من هنا يمكنكما البدء من جديد .. هل ثمة أسئلة ؟ »

صاح (توم) مذعورًا :

- ولكن ماذا سنفعل هنا ؟

- « يا له من سؤال ! تحيان ! أنتما أردتما هذا من زمن ، وهذه هى الحرية التى يطمح إليها كل طفل .. أنت يا (توم) قد ظفرت بما لم أظفر أنا به قط ، وما عشت حياتى كلها أشتهيه ، فحاول أن تستمتع بهذه الهبة .. »

صاحت (عبير) فى جزع :

- « وما هو مستقبلنا ؟ »

- « مستقبلكما هو أن تكبرا هاهنا ، وتتعلما كل شىء .. ثم تتزوجا وتنجبا يومًا ما .. »

- « ومن يزوجنا ؟ »

ابتسم من وراء شاربه الأشعث ، وقال :

- « لا مشكلة هنالك .. ما زال الوقت مبكرًا على أسئلة كهذه ، ويومًا ما سأعود وأجلب لكما رجل دين يزوجكما .. والآن وداعًا ! »

- « هل ستعود يا مستر (توين) ؟ »

نظر للسماء الزرقاء فى استرخاء ، وقال :

- « بالتأكيد سأعود .. من العسير أن يموت مؤلف فى (فانتازيا) كما تعلمون .. أما فى دنيا الواقع فقد انتهت حياتى من زمن سحيق ..

« لقد ولدت عام 1835 عندما كان مذنب (هالى)

يعبر الفضاء ، وتمنيت دومًا ألا أموت ، حتى يعود مذنب (هالى) .. وبالفعل توفيت عام 1910 فى نفس يوم ظهوره !

« لقد كانت حياتى كهذا المذنب .. أضاءت وأحرقت ثم انطفأت ، لكن روحى تظل معلقة به أبدًا ..

« سأعود لكما أيها الطفلان العزيزان بالتأكيد .. »

★ ★ ★

واستدار متجهًا للبحر ..

وقال وهو مستمر فى مسيرته :

– « ثمة مفاجأة صغيرة أحضرتها معكما إلى هذه الجزيرة .. »

صاح (توم) فى حبور :

– « حقًا ؟ هذا لطف منك يا سيدى .. »

كان (توين) يشق الماء الآن ، وقد وصل إلى خصره ، وطفت سترته البيضاء على صفحته ، بينما هو يواصل الكلام :

– « أنتما تعرفان قواعد القصة : لاتترك خيوطًا من أى نوع معلّقة ..

لابد من إغلاق الأبواب كلها ؛ حتى لا يحبط القارئ .. »

هتفت (عبير) محاولة أن تقهر صوت الأمواج :

– « ما أعظم لطفك يا سيدى ! ما هى هذه المفاجأة ؟ »

الآن وصل الماء إلى رأسه ، وهو يصيح :

– « إن ما يجعل المفاجأة تستحق اسم مفاجأة ، هو كونها مفاجأة ! »

والآن اختفى كلية تحت صفحة الماء ..

★ ★ ★

قالت (عبير) فى مرح ، وهى ترمق الماء الذى التأم على الرجل :

– « رجل لطيف حقًا ! »

قال (توم) فى لا مبالاة :

- « لكنه ليس قرصانًا . ولو كان يمثل مستقبلى حقًا فأنا غير راغب فى الحياة ساعة أخرى ! أنا لم أضح بكل هذا كى أصير كاتبًا شهيرًا .. إن حياة اللصوصية هى ما أتوق إليه ! »

- « ليس كل ما يتمناه المرء يدركه .. »

وارتجفت وهى ترمق الماء ، وسالت دمعة من عينيها :

- « ما كنت أحسب أن نترك وراءنا كل شىء بهذه البساطة .. كل شىء .. قريتنا .. أبى وعمتك والمدرسة و ... و ..... »

- « لم يكن لنا خيار .. لقد قررنا أن نفرّ ولم يعد التراجع ممكنًا .. »

عضت على أناملها فى حسرة ، وقالت :

- « لو أننا عدنا .. فلربما تحملنا العقاب ثم يعود كل شىء إلى ..... »

- « هل تمزحين ؟ إن عقابنا هذه المرة لن يمرّ دون دماء ! »

قالت وهى ترمق البحر مفكرة :

- « ما هى المفاجأة التى أعدّها لنا ؟ »

والمفاجأة كانت - فى هذه اللحظة بالذات - تزحف خلفهما حاملة خنجرًا !

★ ★ ★



كان فى يده خنجر مقوّس شرس المظهر ، وفى عينيه احمرار نيران جهنم ..

١١ - اثنان وقاتل ..

إنه ذلك الحافز الخفى ، الذى يجعلك تشعر بأن هناك من يطيل النظر إلى ظهرك ، فتستدير ..

حافز كهذا هو ما جعلهما يستديران ، وفى اللحظة التالية رأياه .. (إنجان جو) الإسبانى بشحمه ولحمه الشريرين ..

كان فى يده خنجر مقوس شرس المظهر ، وفى عينيهِ احمرار نيران جهنم ، وبين أسنانه النخرة يفحّ ثعبان الانتقام ..

- « (بيكى) ! ابتعدى ! »

وراحا يجريان دون أن ينظرا للوراء ..

كان الوغد حافى القدمين ، سريعًا كالأرانب ، لكنك تحتاج إلى لياقة أكثر من اللازم كى تلحق بطفلين فى العاشرة من عمرهما ، وقد راحا يركضان فوق الرمال

الساخنة فى سبل متعرجة ، حتى وجدا جرفًا صخريًا تواريا وراءه ، وراحا يلهثان كحيتين ..

هتف (توم) ورئتاه توشكان على الانفجار :

- « الـ .. الإسبانى ! ماذا جاء بـ .. به إلى هـ .. هنا ؟ »

مثله هتفت :

- « إنـ .. إنها المفـ .. المفاجأة التى أعـ .. أعدها لنا مستر (تويبين) ! »

- «و .. ولماذا يحاول (توين) قتلنا ؟ إن أول ما سيفعله هذا الـ (جو) هو قطع رقبتى ، باعتبارى الشاهد ضده فى المحكمة .. »

استردت أنفاسها أخيرًا ، فقالت :

- « إغلاق الدفاتر ! إن (توين) بحاجة إلى إغلاق دفاتره ما دام مسار القصة قد تبدّل .. لا يمكنه ترك هذا الخيط معلقًا .. كل القراء يعرفون أن (جو) سيلاحقك مطالبًا بالانتقام .. وهم يرغبون بشدّة فى معرفة نتيجة اللقاء .. يسمون هذه بـ (نقطة الإشباع) ، ولو لم ترد فى القصة لسقطت سقوطًا ذريعًا .. »

- « لكن (توين) يعرف أن هذه نهايتى .. »

- « إن الأديب فيه أقوى من الرجل الشهم .. »

ونظر (توم) حوله فى خيبة أمل :

- « أى أمل لنا هنا ؟ جزيرة جرداء بلا مخابئ ، ولسوف يجدنا (جو) خلال ربع ساعة لو طال عمرنا قليلاً .. »

واستطاعت من مخبئها أن تراه يجول فى الجزيرة ، هائجًا كذئب مسعور ، لا يكف عن التلويح بخنجره ، وطعن خصوم وهميين فى الهواء ..

لن يمرّ وقت طويل .. قبل أن يستكشف حاجز الصخور .. وعندها ..

* * *

نظرت حولها مفكرة ..

كان حاجز الصخور ينحدر نحو ما يشبه فتحة أحاطت بها النباتات ، ولم يكن هذا مخبأ ممتازًا .. لكنه يصلح مؤقتًا ..

قالت لـ (توم) :

- « هذا كهف .. هل تراه ؟ »

- « أراه .. ويبدو أنه مناسب للغاية .. »

وأمسك بيدها يعينها على نزول الصخور ، وبعد دقائق وقفا أمام الفتحة المظلمة يفكران : هل ندخل ؟

كانت الرائحة كريهة بالداخل حقًا ، ولم يجد (توم) سببًا يمنع من أن يكون هذا وكرًا للثعابين .. لكنه لم يجد مهربًا ولا حلاً آخر ..

فى صرامة اعتصر يدها ، وشهق .. وبعد ثوان اعتادت عيناهما الظلام ، فمشيا يتحسسان خطواتهما ..

وهذه الأشياء التى تحوم حولك ، وتوشك على الاصطدام بوجهك ، ليست بالتأكيد سوى .....

وطاويط !

★ ★ ★

ولم يكن خطر الوطاويط فى كونها وطاويط ..

الخطر فى أنها بدت واضحة للعيان ، كعمود من

دخان أسود يتصاعد كثيفًا من فتحة الكهف ، وكان لا بد أن تكون ضريرًا كى لا تراه ..

وبالطبع رآه (إنجان) وترجم الإشارة الدخانية فورًا ..

تقلصت كفه على الخنجر ..

وتلاعبت على وجهه ضحكة متوحشة ..

★ ★ ★

وفى الظلام همس (توم) :

- « (بيكى) .. ماذا سيحدث ؟ »

- « فى موقفنا هذا ؟ »

- « بل فى القصة الأصلية .. أنت تعرفينها جيدًا .. »

فكرت فى الظلام هنيهة ، ثم قالت بذلك الهمس الشبيه بالفحيح :

- « كان هناك كهف .. لكننا كنا فى نزهة مدرسية وضللنا طريقنا فى الظلام ، وقابلنا (جو) هناك .. لكننا تمكنا من الخروج ، وبعدها قامت القرية بتثبيت باب

حديدى على مدخل الكهف .. لم يعرفوا لحظتها أن (إيجان جو) بالداخل .. وحين عدنا إلى الكهف معهم وجدنا البائس ميتًا وقد تشبث بالقضبان ، ناظرًا إلى العالم الخارجى .. لقد حاول البقاء حيًّا عن طريق أكل الشموع ، والتهام بعض الوطاويط التى لم يبق منها إلا مخالبها ، لكنه فى النهاية مات جوعًا وعطشًا ، نهاية دامية تليق به حقًا .. »

فكّر (توم) قليلاً ، ثم قال :

- « لقد أعطتنى هذه النهاية فكرة .. هل تظنين لهذا الكهف مخرجًا آخر ؟ »

- « لا .. إنه ضيق ومظلم كقبر .. »

- « وهناك صخرة فوق مدخله .. هل رأيتها ؟ »

- « أظن هذا .. »

- « إذن تعالى نخرج الآن سريعًا .. »

وبصرامة جذب يدها حتى كاد يخلعها ، وخرجا إلى العراء .. لحسن الحظ كان (إنجان جو) بعيدًا يدور حول حاجز الصخور ..

وثب (توم) فوق مدخل الكهف ، وأعان (عبير) على الوثب إلى جواره ، ثم رقد الطفلان حابسين أنفاسهما ..

★ ★ ★

(إيجان جو) يدنو من الكهف ، شرسًا كثور برى ، حذرًا كأفعى ..

نظر لأعلى وتشمم الهواء .. ولوّح بخنجره ..

ربع ثانية لكنها جمدت الدم فى عروق الطفلين ..

وسرعان ما دخل إلى الكهف ..

- « الآن يا (بيكى) ! »

وتشبثا بالصخور ، وبكل ما فى ساقيهما من قوة ركلا الصخرة التى فوق قمة الكهف .. تدحرجت الصخرة الثقيلة ، ثم هوت فى المكان الصحيح تمامًا .. استقرت على الباب تاركة فجوة صغيرة ، تسمح بمرور طفل رضيع لا أكثر ..

تعالى صوت الزئير والسباب الإسبانى من الداخل .. لقد انفجر البركان الشرس ..

وهمست (عبير) دون أن تعرف لماذا تهمس :

- « سيتمكن من زحزحة الصخرة .. »

- « لا .. »

قالها (توم) بثقة ، ووقف يرمق المدخل من علٍ :

- « لن يستطيع .. إن الصخرة لم تسقط إلا اعتمادًا على ثقلها .. أما فى وضعها الحالى ، فمن العسير على رجل أن يزحزحها .. »

- « سيفتتها بخنجره .. »

- « يحتاج إلى أيام لو كان هذا ممكنًا .. وربما يقضى جوعًا قبل أن يتمكن من هذا .. »

أمسكت بيده فى رهبة ، وهمست :

- « أى أننا آمنون ! »

- « أظن هذا .. »

★ ★ ★

لو كانا آمنين فمن هذا الرجل ذو البذلة السوداء ، القادم من بعيد فى تؤدة وثقة ، وهو يداعب قلمًا زنبركيًا لا يكف عن (التكتكة) ؟ »

صاح (توم) :

- « واحد ثالث ! هذه أكثر الجزر المهجورة ازدحامًا فى العالم ! »

قالت (عبير) وهى تثب إلى الأرض فى رشاقة :

- « لا عليك ! هذا جاء معى ! »

دنا (المرشد) منهما وتأمل المشهد ، ثم قال فى رضًا :

- « لا بأس .. لا بأس .. لقد ذهبت إلى (هانيبال) لأصطحبك يا فتاة ، فعلمت أنك فى المحيط على جزيرة ، فى مغامرة شبيهة بقصة البحيرة الزرقاء .. »

- « هو تعديل اضطر إليه المستر (توين) .. »

بسماجته المعهودة ضحك ، وركل صخرة صغيرة :

- « لا بأس .. لا بأس .. هاها ! والآن هيا بنا ! »

صاحت فى ذعر متراجعة :

- « لا ! لن أترك (توم) وحده ، خاصة لو تحرَّر هذا الوحش .. »

ابتسم من جديد :

ـ « تك تتك ! أولاً : هذا الوحش لن يتحرّر .. سيأكل وطواطًا أو اثنين ثم يموت جوعًا .. ثانيًا : (توم) لن يبقى هنا .. لن أترك أهم شخصية فى الأدب الأمريكى على هذه الجزيرة القاحلة .. إن (توم) يستمد وجوده من (المسيسبى) ومن قرية (هانيبال)، ولو ابتعد عنهما فلن يعود هو (توم صوير) .. »

وثنى ذراعه كى تتأبطه (عبير) :

ـ « هيا بنا ! »

مشت معه بضع خطوات فوق الرمال الساخنة ، ثم استدار ليقول لـ (توم) :

ـ « سآتى لأعيدك بمجرّد أن أتخلص من هذه الآنسة ! »

★ ★ ★

كان هذا حين أفاقت (عبير) من رحلتها ..

وسمعت صوت بكاء ابنتها التى شعرت بالجوع ..

★ ★ ★

انتهت القصة ..

لكن (عبير) لم تملّ (فانتازيا) ولسوف تزورها مرارًا ..

وزيارتها القادمة ستكون لمكان دانٍ جدًّا : (المعادى) .. حيث تنطلق دراجات خمسة أصدقاء ومعهم كلب أسود لطيف ..

هل تعرفون مَنْ هم ؟ »

[تمت بحمد اللَّه]

★ ★ ★